بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج

الدعاة

تأليف

الدكتور محي الدين الألوائي

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

١- المقدمة ٥

٢- ضرورة الدعوة إلى الله ٨

٣- الدعوة إلى الله واجب على كل مسلم ومسلمة ١١

٤- المنهج المحمدي لتبليغ الدعوة ١٣

٥- أركان الدعوة الإسلامية ٢١

الركن الأول : موضوع الدعوة ٢٣

الركن الثاني : صفات الدعاة ٣٣

الركن الثالث : أخلاق الدعاة ٣٧

الركن الرابع : أساليب الدعوة ٤٢

الركن الخامس : وسائل الدعوة ٤٦

الركن السادس : معرفة أنواع المدعوين ٥٦

٦- مهبط الرسالة المحمدية ٦٢

٧- اللغة العربية وعاء القرآن والعلوم الإسلامية ٦٥

٨- من أهداف الدعوة الإسلامية ٦٩

٩- الإسلام دين الإنسانية في جميع أطوارها ٧١

١٠- الإسلام دين الفطرة ٧٥

١١- نظرة الإسلام إلى الديانات الأخرى ٧٨

١٢- الإسلام يكافح الطبقية والعنصرية ٨١

١٣- التقريب بين الأمم والشعوب ٨٢
١٤- رفع شأن حناحي الأمة – الرجل والمرأة – على قدم المساواة في الحقوق والواجبات ٨٥
١٥- تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ٨٧
١٦- تربية الشباب على المثل العليا ٩١
١٧- خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام ٩٢
١٨- دعائم الدولة الإسلامية ٩٥
١٩- كيف تسربت عوامل التحلّل والوهن إلى كيان العالم الإسلامي ؟ ٩٧
٢٠- النهضة الجديدة في العالم الإسلامي ٩٩
٢١- العمل لتحقيق التضامن الإسلامي على أسس قويمة ١٠٢
٢٢- الخاتمة ١٠٦

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والرسل والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

فإذا أردنا أن نعرف جوهر الدعوة الإسلامية على وجهه الصحيح ، وجب أن نفهم أولا المعنى الحقيقي الذي يحمله لفظ ((الإسلام)) ، فإن المادة التي اشتق منها لفظ ((الإسلام)) هي : سلم – سلام – سلامة. وتفيد هذه المادة في معناه الأصلي : الأمن والطمأنينة والصلح والسكون والسلامة والنجاة والتحية . وأما لفظ الإسلام المشتق منها يفيد في معناه الخاص : الانقياد والاذعان والخضوع والطاعة . وعلى هذا يكون تعريف الإسلام في الإصطلاح القرآني : ((الانقياد والاستسلام والخضوع لله رب العالمين)) ، بشرط أن يكون هذا الخضوع ((اختياريا)) لأن الخضوع القسرى لله رب العالمين أمر عام لجميع المخلوقات فكل مخلوق خاضع لله ولسننه ، في وجوده وبقائه وفنائه ، والإنسان كغيره من المخلوقات في هذا الخضوع القسري الكوني .

وأما الخضوع الاختياري لله رب العالمين فهذا هو جوهر الإسلام ، وعليه يترتب الثواب والعقاب . وإلى هذا المعنى الخاص يشير قوله تعالى في القرآن الكريم : ((بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه)) { البقرة - ١١٢ } . وقوله : ((أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض.....)) { آل عمران – ٨٣ } . وقوله أيضا : ((ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ....)) { النساء – ١٢٥ } و((إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لله رب العالمين)) { البقرة – ١٣١}.

فالمراد بدين ((الإسلام)) : النظام الإلهي الذي أرسل الله سبحانه وتعالى ، به الأنبياء والرسل في مختلف الأزمنة والأمكنة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . وكان هذا النظام مدويا على الدوام ، يدعو الناس إلى الحق والصدق والعدل ، على ألسنة رسل الله الذين كانوا يظهرون في الوقت المناسب ، ليعلنوا للناس واجب الإنسان نحو نفسه ونحو خالقه . وكان كل منهم صورة مجسمة للكمال الروحي الذي يحتاج إليه أهل زمانه ، ورسولا إلى قومه وأمته ، ليطهرهم ويزكيهم ويأخذ بأيديهم إلى أوج الإصلاح والكمال الإنساني . ومنهم من جاء برسالة محلية موجهة لقوم وفي محيط خاص . ومنهم من جاء برسالة عالمية لا تقتصر على شعب أو أمة بل هدفها هداية الناس جميعا . وكانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم للناس جميعا ، في سائر بقاع الأرض ، بدليل نص القرآن : ((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)) { الاعراف – ١٥٨ } . وكانت رسالته أيضا أكمل الرسالات وخاتمتها بدليل نص القرآن كذلك : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)) { المائدة – ٣}. وتؤكد هذه الآية إتمام النعمة وإكمال الدين فهو الإسلام ((إن الدين عند الله الإسلام)) { آل عمران – ١٩ } .

وأن الدعوة الإسلامية في جوهرها دعوة الرسل من قبل ، وقد اكتملت حلقات هذه الدعوة بخاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عله وسلم ، وهي في جوهرها دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . ويقول القرآن الكريم: ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) { الشورى – ١٣ } . ومحور هذه الدعوة عبادة الله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ أرباب من دونه ، إذ يعلن القرآن : ((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) . { آل عمرا ن – ٦٣ } . وببعثته استقر أيضا التشريع لهذه الدعوة كما اكتملت أسبابها ووسائلها ومناهجها .

وكان أساس الدعوة الإسلامية في جميع مراحلها الاستقامة الكاملة ، وعدم اتباع الأهواء في أي حال من الأحوال ، والعدل المطلق في العمل والسلوك ، والإخلاص لله تعالى وطلب رضاه وحده ، كما أمر الله سبحانه وتعالى بها نبيه ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : ((فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهوائهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ،

الله يجمع بيننا وإليه مصير)) { الشورى – ١٥ } وقال أيضا : ((وادع إلى ربك إنك لعلي هدى مستقيم)) { الحج – ٦٧ } . وأما منهاجها فكان البصيرة ، كما أشار إليه قوله تعالى : ((قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) { يوسف – ١٠٨ } .

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ((الإسلام)) أحسن تبليغ وأكمله . وقام بالدعوة إلى الإسلام بالمناهج والوسائل والأساليب التي أوحى بها الله إليه ، والثابتة في القرآن والسنة النبوية . فإن منهجه هو الأصل والمرجع لجميع الدعاة في سائر الأزمنة والأمكنة . وهذا الكتاب بيان موجز لأصول المنهج المحمدي لتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس . وعسى أن يكون نبراسا لكل من ينصب نفسه داعيا إلى الله تبارك وتعالى ومبلغا لرسالته . والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

د \ محي الدين الألوائي

ضرورة الدعوة إلى الله

إن الله تعالى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا برسالة باقية إلى يوم القيامة . ومقصدها هداية البشر إلى طريق السعادة في الحياة الدنيا والحياة الآخرة التي هي خير وأبقى فيقول القرآن معلنا هاتين الميزتين اللتين تمتاز بها دعوة الإسلام : ((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)) و((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) ثم يقول ((كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)) { إبراهيم – ١ } .

وقد بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الرسالة وتحمل أصحابه هذه المهمة بعده وقاموا بأدائها خير قيام . وإذا كانت هذه الدعوة خالدة وشاملة للبشرية كلها فلا بد من دعاة يبلغونها إلى أهل الأرض جميعا في مختلف الأزمنة والأمكنة ليهدوهم بها ويخرجوهم من الظلمات إلى النور. وهذه المهمة ملقاة على عواتق المسلمين بصفة فردية وجماعية . وإليه يشير القرآن الكريم : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)) . فكان لا بد للمسلمين من النهوض من بعد الرسول عليه الصلاة والسلام بتبليغ دعوة الإسلام لأنهم شهداء الله على الناس جميعا ومبلغوا رسالته إليهم بعد نبيهم .

ويشير القرآن إلى مكانة الدعوة والدعاة وعظيم أجرهم وجزيل ثوابهم عند الله سبحانه وتعالى : ((ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)) { فصلت – ٣٣ } . أما أجر الداعي فعند الله عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجوره شيئا)) . وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لعلي رضي الله عنه ((فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)) .

ولا بد من استمرار الدعوة أيضا لدفع الهلاك والفتنة عن المسلمين أنفسهم لأن نتائج الفساد والشر حينما تعم في بلد أو مجتمع فلا تصيب الأشرار والمفسدين فقط بل تتعدى إلى الجميع ، وإليه يشير قوله تعالى : ((واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)) { الأنفال :- ٢٥} . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ((أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب)) أي يصيب الصالح والطالح . ومن ناحية أخرى أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى الصفات الملازمة لعباده الذين يمكنهم في الأرض ويمنحهم القدرة والملك والعزة إذ قال : ((الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)) { الحج – ٤١} . وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والدعوة إلى الله أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجميع أنواعه من الشرك

والبدع والموبقات كلها ، من أهم صفات عباد الله عز وجل لكي يعيشوا حياة راضية ومرضية وحياة مطمئنة ومتمكنة على وجه الأرض كما أنها من العلامات البارزة لنهضة الأمة وحيويتها وخيريتها بين الأمم .

إذا كانت دعوة إلى الله تعالى وظيفة الأنبياء والرسل في جميع الأزمنة والأمكنة وأول ما يدخل في الدعوة إلى الله هو دعوة الناس إلى عبادته وحده والبراءة من الشرك بأنواعه ثم الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر فلا بد من استمرار هذه الوظيفة على وجه الأرض ما دامت الوثنية والشرك والجاهلية موجودة في البشر فما بالنا في العصور التي لا يزال الشرك والعبادة والأوثان والأعمال الفاسدة والخرافات منتشرة في شتى البلاد مثل يومنا هذا ؟ فالدعوة ضرورة ملحة في كل عصر وفي كل مكان حسب ظروفه ومتطلباته ، فإذا كان الكفر والشرك في أية بقعة من الأرض يؤثر عاجلا أو آجلا على بقاع الأخرى فلا بد على الدعاة أن يعملوا على مكافحة ذلك المرض في مكانه أولا ثم حماية الأماكن الأخرى من التعدي إليها .

وأن الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل من طبيعة الدنيا منذ خلقها إلى يوم القيامة . فأمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ودفع الهلاك والعذاب عن المسلمين قال تعالى : ((واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)) { الأنفال – ٢٥ } . وفي حديث مسلم أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : ((نعم إذا كثر الخبث)) . وما دامت المنكرات منتشرة في البلاد يجب استمرار الدعوة في جميع الأحوال والظروف وفي كل وقت بصرف النظر عن مدى استجابة الناس . وقال تعالى مبينا هدف الدعوة : ((وما على الرسلول إلا البلاغ المبين)) { النور – ٥٤ } . فإذا كان الرسول غير مكلف إلا بالتبليغ فغيره من آحاد الأمة أولى أن لا يكلف بغير التبليغ لأن المسلم مطالب ومكلف بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن الاستجابة والهداية بيد الله تعالى وحده وليس في يد الإنسان كائنا من كان كما أشارت إليه الآية الكريمة مخاطبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) . وأما الهداية المنسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض الآيات فهي هداية التبليغ والبيان والدعوة فهي للرسل ولسائر الدعاة . فهم المكلفون بها كما قال تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : ((وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)) .

إذا كانت الدعوة إلى الله أحسن الأقوال في ميزان الله تعالى ولا سيما عند تفشى الفساد في الأرض – كما هو واضح من الآيات السابقة – فإن الداعي إلى الله يستمرفي وظيفته بلا كلل ولا ملل ولا فتور لأن واجبه البلاغ والتبيين والوعظ والإرشاد فلا يطلب من أحد من الخلق أجرا على دعوته ولا مالا ولا جاها . وأن نشر الدعوة الإسلامية في المجتمعات البشرية التي تفشى فيها الجاهلية والخرافات والبدع والضلال وانحلال الأخلاق وانحراف الحياة الاجتماعية واجب على كل مسلم حسب استطاعته بعلمه وفكره وسلطانه وماله . ونشر الدعوة الإسلامية في مثل هذه المجتمعات يحتاج إلى جهود جبارة ودراسة وخطة محكمة . وتشتد ضرورة هذه الدعوة كلما تزداد الحاجة إليها وتتسع دائرتها وتكثر مجالات الفساد وتتعدد فئات الضلال فتتنوع حركات الفتنة والضلال في مختلف البلدان .

والحقيقة أن الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر من ضرورات مصالح العباد والبلاد . ولتحقيق هذه المصالح جاءت الأديان وبعث الأنبياء والرسل . ومصلحة الإنسان الحقيقية في اتباع شريعة الله في خلقه وأن مصالح العباد هي ثلاثة أنواع هي : المصالح الضرورية والحاجية والكمالية أوالتحسينية ، وقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحقق هذه المصالح ويحفظها فيتحقق للناس سعادتهم في هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة . وأن مصالح الحياة الدنيا في الحقيقة ليست مطلوبة لذاتها وإنما هي وسيلة لمصالح الآخرة لأن المصلحة الكبرى تقدم على الصغرى في نظر الإسلام وفي نظر العقلاء بل وهذا هو مقتضى الفطرة السليمة فالآخرة خير وأبقى فإن سعادة الآخرة ولذائذها دائمة غير منقطعة بينما سعادة الدنيا مؤقتة ومنقطعة قطعا فهي لا تتجاوز عمر الإنسان . وأية نسبة بين سعادة مقدرة بعمر الإنسان القصير المتناهي، وسعادة الآخرة الدائمة لمدة غير متناهية ؟ وباختصار أن الدعوة إلى الحق وظيفة رسول الله والأمة شريكة لرسولها في وظيفة الدعوة وهي أيضا من أخص صفات المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين . ومن هنا يتبين مدى ضرورة الدعوة والدعاة لهداية الجنس البشري .

الدعوة إلى الله واجب على كل مسلم ومسلمة

إن الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة رسل الله جميعا . ومن أجلها بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة . والداعي الأول ، بعد أن أنعم الله على البشرية باكمال سلسلة الأديان وإتمام حلقات الرسالات ببعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن الكريم دستورا كاملا وشاملا لجميع مجالات الحياة البشرية ومتكفلا بسعادتى الدارين ، هو الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول القرآن الكريم مبينا مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة :

١ - ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)) { الأحزاب -٤٥ } .

٢ - ((وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم)) { سورة الحج – ٦٧ } .

٣ - ((قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)) {يوسف – ١٠٨ } .

ويتضح بجلاء من الآيات القرآنية التالية أن كل مسلم ومسلمة مكلف بواجب الدعوة إلى الله تعالى ، كل في دائرة استطاعته ومجاله . وبهذه الوظيفة أكرم الله تعالى الأمة المحمدية وشرفها إذ أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه كما هو واضح من الآية السابقة ، وكما هو صريح في الآيات الكثيرة الأخرى في القرآن الحكيم . ومنها قوله تعالى :

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)) . وقوله تعالى أيضا :

((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) { التوبة – ٧١ }

ويستفاد من هاتين الآيتين أن هذه الأمة خير الأمم وأن خيرية هذه الأمة مرتبطة بقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي وظيفة الرسل جميعا ويستفاذ منها أيضا أن الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر من أخص صفات المؤمنين والمؤمنات . والدعوة إلى الله قد تؤدى بصورة فردية وقد

تؤدى بصورة جماعية . أما الوجوب الفردي فكل بحسب دائرته واستطاعته كما ثبت في الحديث الصحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) [رواه مسلم] . وأما القيام بالدعوة إلى الإسلام فيكون ضروريا بصورة جماعية وبطريقة منظمة ومستمرة إذا أريد نشر رسالة الإسلام في المجتمعات غير الإسلامية وفي البلاد التي لم تصل إليها دعوة الإسلام مطلقا ففي مثل هذه الظروف يجب أن تبذل جهود كبيرة ومنظمة ولا يكفي ما يقوم به المسلم بصفته فردا مسلما كما لا يكفي جهود مبعثرة لبعض الأفراد . ويدل على هذا الأداء الجماعي المتفرغ لمهمة التبشير بالإسلام قوله تعالى : ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) { آل عمران – ١٠٤ } .

وأما الكلمات الثلاث الأولى من هذه الآ ية الكريمة فتوضح مقاصد الدعوة والدعاة المشار إليها في الآيات المذكورة سابقا وفي هذه الآية . وكلمة ((منكم)) تعني المسلمين بصفة عامة و((أمة)) تعني جماعة منهم متخصصة ومتفرغة للدعوة إلى الله وهداية البشرية كلها إلى حظيرة رسالة الإسلام . وهذه العملية فرض كفاية أي إذا قامت بها جماعة سقط التكليف عن الباقين ، فإن لم يفعل المسلمون ذلك أثم الجميع . وأن واجب الدعوة الى الله بمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه هو واجب فردي يجب أن يقوم به كل فرد مسلم ذكر وأنثى كما جعله الله تعالى من أخص أوصاف المؤمنين والمؤمنات .

ولا يتخلص مسلم ذكرا كان أو أنثى من واجب الدعوة إلى الله تعالى حسب قدرته إما في دائرة الواجب الفردي أو في دائرة الفرض الكفائي ، لا سيما في الزمان الذي تفشى فيه الشرك والكفر والبدع والخرافات في المجتمعات القريبة والبعيدة والبلاد المجاورة والنائية . ويجب أن نتذكر أيضا أنه يجب على المسلمين بعد الخروج من عهدة الواجب الفردي والفرض الكفائي أن يعاونوا الجماعة المتصدية للدعوة إلى الله تعالى بكل الوسائل الممكنة ليتحقق المقصود من قيام هذه الجماعة من تبليغ دعوة الإسلام وإقامة دين الله تعالى وإعلاء كلمته . ويقول الله سبحانه وتعالى : ((وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم وا لعدوان)) { المائدة – ٢ } . ويقول ((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)) { الحج -٤٠ } . وقد يتشبث البعض بشبهة كبرى ، وهي أن الإنسان ما دام صالحا في نفسه يتخلص من واجب الدعوة إلى الله ويتقاعس من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومنشأ هذه الشبهة عند البعض هو التوهم بأن قوله تعالى في القرآن الكريم : ((يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)) { المائدة – ١٠٥ } ، يعفيه من تكليف الدعوة ما دام هو في نفسه مهتديا . وتزول هذه الشبهة بالفهم الصحيح لسياق الآية ومعنى الاهتداء . إن هذا الوهم تسرب إلى البعض في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فخطب في الناس وقال : ((يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية الكريمة وتضعونها في غير موضعها ، ((عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)) وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلما يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب)) [نيل المرام من تفسير آيات الأحكام] . ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض الكلام عن قوله تعالى في الآية ((اذا اهتديتم)) : ((إن الاهتداء

إنما يتم بأداء الواجب ، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من أمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضال)) [الحسبة لابن تيمية] .

والشبهة الأخرى التي يتشبث بها بعض المتقاعسين عن مهمة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هي الفهم السقيم لمعنى الآية الكريمة ((لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)) فيتعلل بأن القيام بمهمة الدعوة تسبب له تعبا ومشفقة وارهاقا وخاصة في هذا الزمان الذي انتشر الباطل في الأرض واشتدت تحديات أعداء الدعوة الإسلامية فيبرر قعوده عن الدعوة متوهما أن هذه الآية الكريمة تعفيه من تكليف الدعوة لأنه لا يستطيع تحملها . والحقيقة أن التعب الذي يناله في أداء هذا التكليف يسير وبسيط إذا قام به بحكمة ونظام . وهل يتعب إنسان إذا تحدث بكلمة طيبة يأمر بها إنسانا بالمعروف ويسدي نصيحة بحكمة وموعظة حسنة لآخر؟ وهل هناك تعب لا يطاق إذا قام بتعليم جاهل أمور الإسلام ؟ أو عرض الإسلام على كافر لم يسمع به ؟ وهل هذا التعب أكثر وأشد من التعب الذي يناله في سعيه للظفر بمآرب الدنيا التافهة كربح في التجارة وكسب في الصناعة أو الزراعة ؟ وفي الوقت نفسه يجب على كل مسلم مخلص أن يتذكر تاريخ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح وسائر الدعاة المجاهدين في خدمة الدعوة الإسلامية والأعباء التي تحملوها في سبيل الدعوة إلى الله ونشر دينه وإصلاح الأمة . ولا يتعلل بهذه الآية ويتقاعس عن وظيفة الدعوة إلا ضعاف النفوس وقصار النظر . وإذا عرف المسلم عظمة هذه الوظيفة وجزالة ثوابها عند الله سبحانه وتعالى فلا يستكثر الجهد البسيط الذي يبذله في سبيل الدعوة إلى الله ونشر محاسن الإسلام وتعليم الناس مكارم الأخلاق .

المنهج المحمدي لتبليغ الدعوة

قلنا : إن الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة رسل الله جميعا والداعي الأول بعد أنعم الله عز وجل على الإنسانية بإكمال سلسلة الرسالات الإلهية وإنزال القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والرسل هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام الدعاة وقدوتهم في هذه الوظيفة ومنهجه هو المنهج القويم الذي يجب أن يسلكه كل فرد أو جماعة ، ينصب نفسه لهذه المهمة الكبرى . وأن الأصل في وظيفة الدعوة إلى الله تعالى هو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . وقال الله تعالى : ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)) وقال أيضا : ((وادع إلى ربك إنك لعلي هدى مستقيم)) .

وأن الله تعالى قد أكرم الأمة الإسلامية وشرفها بإشراكها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه . وقال تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) . وقال مشيرا إلى هذا التشريف : ((كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)) ويحتاج الداعي المسلم في أداء مهمته ووظيفته التي هي في الأصل وظيفة رسل الله إلى اتباع منهج أشرف الأنبياء والرسل وإمام الدعاة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ويجب عليه أن يتخذه قدوة في كل خطوة يخطوها في هذا المضمار . وقال تعالى : ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) .

وعلى الداعي الواعي المخلص أن يتأسى بسيرة إمام الدعاة في أمور الدعوة كلها وأن النهج الصحيح في وسائل الدعوة وأساليبها هوالمستقى من النهج المحمدي . والخروج عن هذا النهج الصحيح في الأسلوب والوسيلة خروج عن الإرشاد الإلهي وانحراف عن السنة النبوية وسيرة السلف الصالح وبالتالي يؤدي إلى الفشل وعدم بلوغ الغاية. وفضلا عن ذلك فإن الخروج عن النهج الصحيح يؤدي غالبا إلى لحوق الأذى بالعاملين في مجال الدعوة وضياع الجهود بلا طائل كالذي يقيم البناء على أسس غير سليمة أو بمواد غير صالحة فإن بناءه إلى الزوال مع احتمال انهدامه على ساكنيه. وإن هذه النتائج تقع حتما وإن كان الداعي حسن النية ، لأن النتائج في الدنيا تترتب على أسبابها ومقدماتها بصرف النظر عن نيات أصحابها .

وعلى سبيل المثال ، فإن الدعوة باللين وحسن الخلق هو النهج المحمدي الصحيح وبه يلتفت إليه الناس ويألفون به . وأن استخدام الغلظة والشدة خروج عن الأسلوب المحمدي وبه ينفض عنه الناس وينفرونه مهما كان محقا في دعوته ومخلصا في عمله . وجدير بالذكر أيضا أن هذا الداعي قد ارتكب بخروجه على النهج الصحيح معصيتين : مخالفة أحكام الدين في أمور الدعوة وتنفير الناس عن الدعوة الإسلامية . وينبغي له أن يعلم يقينا أنه ليس بأحسن حالا من إمام الدعاة أشرف المرسلين محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه الله تعالى بقوله : ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)) لقد صدق الله العزيز الحكيم .

ضرورة الالتزام بالمنهج المحمدي

في جميع مراحل الدعوة

إن الاستمساك بالنهج الصحيح ضروري لكل داعية ولازم له وواجب عليه لأن الإسلام يقضي به ، والواجب على المسلم أن يتمسك بما يقضي به الدين ، كما أن التزام هذا النهج الصحيح يقرب من الغاية ويوصل إلى المراد ولو بعد حين بخلاف غيره من المناهج فإنه خطأ ويبعد عن الغاية ولا يوصل إلى المطلوب .

فإذا قام الداعي بما هو مطلوب منه لم يكن مسئولا عن نتيجة عمله من حيث بلوغ الغاية والوصول إلى المراد والحساب إنما يكون على مشروعية عمل الإنسان وهل أدى كل ما عليه من واجب ؟ وإذا تبين هذا الأمر وفهمه الداعي بوعي وإدراك لم يكن له أن يخرج على النهج الصحيح بحجة صعوبته أو طوله أو عدم قبول الناس له أو تعجلا من الداعي لبلوغ الغاية أو انسياقا وراء عاطفة نبيلة دينية حسنة ورغبة صادقة في العمل والجهاد . وفي الشهادة في سبيل الله ، لأن الخطأ لا يصير صوابا بالنيات الحسنة والعواطف النبيلة ويكفي لنا دليلا على أن الدعوة الإسلامية ما سارت وراء رغبات المتحمسين وعواطف الصادقين المتعجلين ، فالقتال ما شرع في مكة ، وكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم : أن اصبروا . وصلح الحديبية لم تتسع له صدور كثير من المسلمين بالرغم من صدقهم وعمق إيمانهم واستعدادهم للقتال وللاستشهاد ولكن اتسع له صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المسألة ليست مسألة استعداد للموت وصدق في هذا الاستعداد وإنما المسألة هي لزوم السير على النهج الصحيح فهو وحده الموصل إلى المراد وبلوغ الغاية على الوجه المطلوب . ولهذا نزل القرآن واصفا ذلك الصلح بالفتح المبين .

ويجب على الداعي أن لا يتأثر بالعواطف والحماس بدون النظر السديد في اختيار الاساليب والوسائل السليمة في ضوء المصادر الصحيحة القويمة . وإن الحماس والعاطفة والرغبة في العمل يجب أن يوجه ذلك كله لتحقيق وتنفيذ الأسلوب الصحيح ، لا أن يوجه ذلك للتشكيك في الأسلوب الصحيح والابتعاد عن الوسائل السليمة والجدل العقيم والمناظرات الجافة التي لا تؤدي إلى نتائج نافعة ومثمرة .

سهولة الالتزام بالنهج الصحيح

إن الفهم الدقيق الجيد لمعاني النهج الصحيح يسهل الالتزام به ويعين على استقائه من مصادره الحقيقة . ويستفاد من الآيات الكريمة العديدة التي خاطب الله تعالى به خاتم رسلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أمور الدعوة إليه ، ما يعين كل داعية على معرفة المنهاج الصحيح للدعوة التزود من معانيها ما يثبت فؤاده . ويؤكد القرآن الكريم لزوم الاقتداء بمنهج رسل الله في الدعوة إليه . وقال تعالى في سيرة المرسلين في أمور الدعوة إلى الله : ((لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب. ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) . { يوسف – ١١١ } وقال أيضا : ((أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)) { الأنعام - ٩٠ } .

وفي السيرة النبوية المطهرة أسوة حسنة للدعاة في جميع الأزمنة والأمكنة والبيئات وفي كل المجتمعات والمستويات ، ولمعالجة مختلف الأحداث والظروف التي يواجهونها في شتى مراحل الدعوة وأحوالها . وأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مر بمختلف الظروف وعالجها . فما من حالة يكون فيها الداعي ، أو أحداث تواجهه ، إلا ويوجد منها الحل الصحيح والموقف السليم الذي يجب أن يقفه إذا ما فقه معاني السيرة النبوية .

وكان من حكمة الله العزيز الحكيم ولطفه أن جعل رسوله الكريم يمر بما مر به من ظروف وأحوال حتى يعرف الدعاة المسلمون كيف يتصرفون وكيف يسلكون في أمور الدعوة في مختلف الظروف والأحوال اقتداء بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت السيرة النبوية والتوجيهات النبوية الكريمة تطبيقات عملية لما أمر الله به رسوله في أمور الدعوة وتبليغ الرسالة ، وما ألهم رسوله في هذا المجال ، فلا يجوز للداعي أن يغفل عن سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم . وكان السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ، أعلم من غيرهم بمراد الشارع وفقه الدعوة ففي سيرتهم أيضا سوابق مهمة في أمور الدعوة يستفيد منها الدعاة .

إن الالتزام بالمنهج الصحيح في الدعوة يقتضى أن يحيط الداعي بمعاني النهج المحمدي وحضورها في ذهنه بحيث تصدر أفعاله وأقواله ومعاملاته بموجبها بسهولة ويسر . ثم عليه أن يطبق ما فهمه من هذه المعاني على الجزئيات التي يباشرها أو يوجهها وهي كثيرة ومتنوعة . وعندما تختلط هذه الجزئيات ببعضها ويصعب التمييز فيما بينهما لا بد له من كفاءة وقدرة على حسن التصرف ودقة التطبيق .

أما الداعية – في كل زمان ومكان – فهو يواجه اصناف من الناس ، جاهلين بالحق أ و متمردين عليه أو نافرين منه أو غافلين عنه ومقبلين على الدنيا وشهواتها بدون تفكر وتدبر أو ملحدين بالأديان ومنكرين الله تعالى أو مشركين به حيث يؤمنون بوجود الخالق ولكن لا يؤمنون بوحدانيته بالألوهية

واستحقاقه وحده بالعبادة ، وهناك أيضا أناس من المؤمنين المسلمين ولكن الخرافات والعقائد الفاسدة والبدع قد تسربت إلى حياتهم الدينية وانحرفوا عن طريق الإسلام الصحيح ، في التطبيق العملي لتعاليم الإسلام ، ولابد له من كفاءة وقدرة على حسن التصرف في وضع الخطة الملائمة والأسلوب الصحيح لمواجهة صنف المدعوين الذين يخاطبهم ويواجههم . وكل ذلك في ضوء ما تعلمه من قدوة إمام الدعاة الأمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وعليه أن يعلم أن المنهج المحمدي هو الذي تخرج منه نجوم هداة ودعاة أعلام نهتدي بهم كما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم : ((أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)) .

فإن الداعي الأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلجأ في أي طور من أطوار دعوته وأية مرحلة من مراحلها ، مهما تشعبت الظروف وتعقدت الأمور ، الى أسلوب التهديد والبطش ولا إلى وسائل القوة والعنف الذي يهيج الجمهور ويستثيره بدون اقناع وبث الثقة في نفوسهم نحو ما يدعو إليه . وإنما كان أسلوب دعوته إبلاغها إلى المخاطبين في سكينة ووقار وحذر وهدوء . وقد واجه في دعوته في شتى المراحل أنواعا من قوى الشر والظلم والطغيان والاستبداد والعصبية الجاهلية أشد وأقسى مما يواجهه الدعاة في عصرنا هذا ، فكيف ينبري أحد منهم ليقول : إن الظروف قد تغيرت وقد اشتدت مقاومة قوى الطغيان وازدادت معارضة عناصر الظلم والبطش ؟ ولكن أمين الدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أدرك بتوجيه من ربه وبثاقب فكره مدى خطورة الإقدام على العنف والتشدد . وشاءت إرادة الله تعالى أن تقوم الدعوة الى سبيله على الاقناع والحكمة والتعليم والسلم فقال الله تعالى لنبيه الكريم مرشدا وموجها : ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) . بدأ النبي صلى الله عليه وسلم مهمة الدعوة أولا بإبلاغها إلى من يطمئن إليه من نفوس صافية وقوية من أقاربه وعشيرته بدون إعلان ولا ظهور وضجة إعلامية وإعلانية فبالرغم أن عددا قليلا هم الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة غير أنها قلة عالية الإيمان قوية التفكير استطاعت أن تقرع أسماع القوم وتحملهم على التحدث عن الدعوة والداعي وتهيئة النفوس المؤمنة للبحث عن أصول الدعوة الجديد ة. وكيف كان منهجه في هذه المرحلة ؟ وما هي الدروس التي يجب على الداعية المسلم أن يستوعبها من أسوة إمام الدعاة ؟ .

إذ نزل قوله تعالى : ((وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)) ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين من بني هاشم للاجتماع به فجمعهم حول مائدة واحدة ثم قال لهم : ((إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله الذي لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون . ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا)) ، فتكلم القوم كلاما لينا ما عدا عمه (أبا لهب) الذي كان خصما عنيدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انتقلت الدعوة من المرحلة المحدودة الى مرحلة واسعة جهرية فبدأ يلتقى بالناس في الطرقات ويدخل عليهم في منازلهم ويدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تملك من الحق شيئا ، فاستوعب بذلك بيوت مكة وما حولها ولم يخل بيت من العلم بالدعوة الجديدة ولم يخل مجلس من الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته ورسالته .

هكذا أعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماع عام ومؤتمر شامل فقد وقف صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى أهل مكة وقريش جميعا فأسرعوا إليه ومن لم يستطع أرسل رسولا ليقف على الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فوق الصفا بصوت مرتفع : ((أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟)) قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا قط، قال : ((فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) فقال أبو لهب عمه : تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ وأنزل الله تعالى في شأنه : ((تبت يدا أبي لهب وتب)) . ولكن القوم انصرفوا وهم يتحدثون في حرارة وفي غليان عن هذا الحديث الكبير والنبأ العظيم .

وبعد أن دخلت الدعوة المرحلة العلنية ، أخذ الرسول الله صلى الله عليه وسلم يتابع تبليغ الناس دعوته بالذهاب إلى الأسواق والمعارض التي تقام في الأسواق الشهيرة بمكة وحواليها ويعرض نفسه على الناس ويدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان والأخلاق الفاسدة . وفي أحد الأماكن العامة التقى بستة نفر من الأوس من مدينة يثرب وعرض عليهم الإسلام وقرِأ عليهم بعض آيات من القرآن فعرفوا أنه الرسول الذي تنتظره اليهود . وواعدوه على المقابلة في موسم الحج من العام القادم . فلما جاء الموعد حضر إليه اثنا عشر رجلا من الخزرج فاسلموا وعاهدهم على أن لا يشركوا بالله شيئا وعلى السمع والطاعة لله ورسوله وأرسل معهم مصعب بن عمير ، وكان أول مبعوث ارسله الرسول صلى الله عليه وسلم لتبليغ الدعوة الإسلامية ، إلى خارج مكة المكرمة . ووصل صوت الإسلام إلى مدينة يثرب وأصبحت الدعوة الإسلامية حديث الناس فيها . وبانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب (المدينة المنورة) بدأت مرحلة أخرى للدعوة الإسلامية فانطلقت من نطاق محلي إلى نطاق عالمي فنرى الرسول الكريم يلجأ إلى أربعة أساليب رئيسية لتبليغ دعوة الإسلام ورسالته إلى الناس كافة ، أولا : إرسال الدعاة إلى كل مكان مبشرين ومعلمين وعلى كافة المستويات حكاما وشعوبا فأرسل صلى الله عليه وسلم وفودا تعلم القبائل والأفراد في أنحاء جزيرة العرب وكان من أعلام هؤلاء الدعاة الإمام علي بن أبي طالب ومصعب بن عمير وأبو ذر الغفاري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم . وأن التوجيه العام الذي كان يتلقى كل منهم من الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم هو: ((بشروا ولا تنفروا يسروا ولا تعسروا)) . واتخذوه شعارا لهم في أداء مهمتهم في جميع الأمكنة والظروف وكل المستويات . وثانيا : مكاتبة الرؤساء والملوك والأمراء بشأن دعوة الإسلام والإرسال إليهم رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام وبالتالي أقوامهم ورعاياهم . ومن هذه الرسائل ، رسالته التي بعثها إلى قيصر الروم والتي بعثها إلى كسرى ملك الفرس والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وغيرهم . وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتما خاصا من فضة يختم به رسائله وكان نقشه : ((محمد رسول الله)) . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الأسلوب وصول صوت الإسلام إلى دول عظمى مجاورة للجزيرة العربية وانتشار خبر هذه الدعوة في أوساط الأمم والشعوب المجاورة . وثالثا : التحرك السريع للقاء الجماهير والتجمعات المحلية والخارجية كما كان يخرج إلى الأسواق والمعارض التجارية ليدعو الجماهير إلى الإسلام وليعرض نفسه ودعوته عليهم . وفي مقدمة هذه التجمعات موسم الحج حيث يفد إليه الناس من أدنى البلاد وأقصاها فيعرض على أولئك القادمين دعوته ويناقشهم في أمور دينهم ويدعوهم إلى التوحيد . ورابعا : عقد الاجتماعات والمؤتمرات التي تضم قادة المسلمين وخاصتهم وعامتهم حتى يناقشوا أمور دينهم ودنياهم وشئون الدعوة في شتى المستويات . وتتم هذه اللقاءات يوميا وفي أوقات متفرقة من

نهار وليل في مسجده بالمدينة المنورة كما تتم بنطاق أوسع كل أسبوع يوم الجمعة وأن من أركان الجمعة الخطبتين ومن أهدافهما معالجة مشاكل الناس وقضاياهم ومن المسجد انطلقت أولى خطوات منظمة لتبليغ الدعوة في التاريخ فقد كانت فيه اجتماعات جمهور المسلمين ولقاءات الوفود وإيفاد البعثات إلى كل مكان تحمل رسائل من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعو إلى الإسلام . وكان صلى الله عليه وسلم كلما نزل أمر من السماء أو حدث أمر آخر يستوجب معرفة رأى في الدين يأمر بالصلاة جامعة ويصعد إلى المنبر ويحدث الناس بكل الامور . وهكذا علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية مكانة المساجد كمراكز إشعاع فكري ونقطة انطلاق للدعوة الإسلامية . أما اللقاء السنوي الكبير في موسم الحج مع القادمين من شتى أنحاء البلاد وعرض دعوته عليهم ومناقشتهم في شئونها فكان أسلوبا نموذجا من الأساليب النبوية لتبليغ الدعوة إلى الناس .

وفي هذه الأساليب النبوية القدوة الحسنة التي يتعلم منها الدعاة المنهج الصحيح والطريقة الصحيحة لتبليغ الدعوة إلى كافة المستويات حكاما وشعوبا وأشرافا وأتباعا . وعلى هذا المنهج النبوي سار الصحابة والتابعون والسلف الصالح، فكانوا هداة ودعاة يفتحون القلوب قبل البلاد وينشرون الأمل والطمأنينة في النفوس ففتحت أمامهم أبواب الامصار ودخل الناس في دين أفواجا فرحين ومستبشرين .

أركان الدعوة الإسلامية

فهمنا من تعريف الدعوة أن المقصود بالدعوة الإسلامية دعوة الناس إلى الإسلام وإبلاغ تعاليمه ونشر مبادئه وأنظمته ، طبقا للمناهج والاساليب التي اتبعها إمام الدعوة الإسلامية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام بالوسائل والاساليب والمناهج التي أوحى بها الله إليه وقد بلغ الإسلام أحسن تبليغ وأكمله . وهذه المناهج ثابتة في القرآن والسيرة النبوية الشريفة . ويجب على كل شخص عقد عزمه على النزول في هذا الميدان أن يدري ويفهم المنهج النبوي في الدعوة إلى الله ودينه . فهو إمام الدعاة وقدوتهم في كل ما يتصل بموضوع الدعوة ومناهجها ووسائلها وأساليبها .

وتأكيدا لهذه القاعدة الهامة وتوضيحا لجوانبها المختلفة دعنا نقرأ ونفهم الآيات القرآنية الآتية :

((يا أيها النبي إنا أرسلنا شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا)) { سورة الأحزاب – ٤٥ ، ٤٦ } .

((وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)) { سورة سبأ – ٢٧ } .

((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)) { سورة المائدة – ٦٧ } .

((وما على الرسول إلا البلاغ المبين)) { سورة النور – ٥٤ } و{ سورة العنكبوت – ١٨ } .

((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)) { سورة النحل – ١٢٥ } .

((وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين)) { سورة القصص – ٨٧ } .

((فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير)) { سورة الشورى – ١٥ } .

((وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)) { سورة الروم – ٥٢ } .

((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين)) { سورة المائدة – ٦٧ } .

((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين)) {سورة المائدة – ٩٢ } .

((فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ)) { سورة الشورى – ٤٨ } .

((وما أرسلناك إلا بشيرا ونذيرا)) { سورة الإسراء – ١٠٥ } .

((وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين)) { سورة الأنعام – ٤٨ } و{ سورة الكهف – ٥٦ } .

((فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر)) { سورة الغاشية – ٢٢ } .

((قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) { سورة يوسف – ١٠٨ } .

وأما الدعوة إلى الله ودينه فهي وظيفة رسل الله جميعا ، في جميع الأزمنة والأمكنة ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس فقال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) فرسل الله هم أئمة الدعوة إلى الله . ومن ناحية أخرى جعل القرآن الكريم الدعوة إلى الله من أهم صفات المؤمنين وأمرهم بالقيام بهذه المهمة خير قيام . وبعد أن أدخل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم جميعا في هذه الوظيفة إذ قال : ((قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) {سورة يوسف – ١٠٨ } جعل الدعوة إلى الله من أخص صفات الأمة المحمدية فيقول : ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)) . { سورة آل عمران – ١١٠ }

((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) { سورة التوبة – ٧١ } .

وقوله تعالى : ((وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) { سورة العصر – ٣ } وقوله أيضا ((وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)) { سورة المائدة – ٢ } .

وهذه الآيات القرآنية صريحة في أن الدعوة أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم ومسلمة بصورة فردية بحسب مقدرته وظروفه . كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) .

وجاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((فليبلغ العلم الشاهد الغائب)) .

وإلى جانب الواجب الفردي لكل مسلم ومسلمة أن يقوم بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دائرة استطاعته وتخصصه يجب أن تكون في الأمة جماعة متفرغة لهذا الشأن كلما كانت مهمة الدعوة جسيمة وأصبحت الأقطار والمجتمعات في حاجة إلى نشر دعوة الحق فيها ولا تكفي الجهود الفردية ولا جهود مبعثرة ولا متفرقة وإليه يشير قوله تعالى : ((ولتكن منك أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) { سورة آل عمران – ١٥٤ } وهذه الآية وكذلك الآيات التي ذكرناها سابقا تدعوا إلى ضرورة وجود نظام تبشيري إسلامي على شكل جماعي ، ووجوب قيام منظمات لنشر الدعوة الإسلامية وتبليغ مبادئ الإسلام وتوجيه الجهود الجماعية لصالح البشرية جمعاء .

وفي ضوء هذا التمهيد يمكن تلخيص اركان الدعوة الإسلامية في خمسة أمور :

الركن الأول : موضوع الدعوة

عرفنا أن المراد بالدعوة الإسلامية هو تبليغ تعاليم الإسلام ومبادئه إلى الناس ودعوتهم إلى اتباعها ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة وعرفنا أيضا أن الإسلام هو الدين الحق الذي دعا إليه جميع الأنبياء والرسل في جميع الأزمنة والأمكنة وكملت حلقاته وتمت شرائعه مع بعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من الآيات الصريحة الآتية :

((ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلى وأنتم مسلمون)) { سورة البقرة – ١٣٠ – ١٣٣ } .

((إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب)) { سورة آل عمران – ٩٩ } .

((ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)) { سورة آل عمران -٨٥ } .

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي رضيت لكم الإسلام دينا)) { سورة المائدة – ٣ } .

فموضوع الدعوة المنشود هنا هو الإسلام الذي هو النظام العام الشامل لأمور حياة البشرية كلها ، والذي جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الحكيم والسنة النبوية ، ويشمل هذا النظام أحكام العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات وكذلك يشمل أخبار الأمم السابقة بالقدر اللازم للاتعاظ والاعتبار للأجيال اللاحقة وما يترتب على اتباعه أو مخالفته من ثواب أو عقاب وحدود وقصاص . فالإسلام هو دين الفطرة لقوله تعالى : ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك دين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) { الروم : ٣٠ } . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم الأركان أو القواعد الرئيسية التي يبنى عليها ويقوم صرح الدعوة الدعوة الإسلامية ، في حديث صحيح حيث جاء جبريل عليه السلام بهيئة رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع الحاضرون ويتعلموا دينهم ، جاء في هذا الحديث : قال فأخبرني عن الإسلام : فقال صلى الله عليه وسلم: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم الرمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)) .

وعلى هذا التعريف الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فأركان الإسلام تقف على قاعدتين رئيسيتين الأولى : الإيمان والثانية : العمل الصالح . وفي ذروة الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وفي ذروة العمل الصالح الصلاة والزكاة والصيام والحج . وهاتان القاعدتان تتضمنان جميع ما جاء في الكلام عن الإسلام بالتفصيل والإسهاب . وعلى الداعية أن يبين ما يناسب حال المدعو من جهة مدى حاجته وفهمه وسلامة فطرته ونوع الشبهات التي طرأت على ذهنه . ومن هنا يتضح لنا حكمة تنوع تعاريف الإسلام بعبارات متنوعة في أجوبة الرسول صلى الله عليه وسلم للذين سألوه عن الإسلام والمسلم وتعاليمه في مناسبات مختلفة وكذلك في تعاريف الأئمة والباحثين الاسلاميين. وهذا النوع

من الاختلاف في الألفاظ في تعريف الإسلام بشرط أن يكون مضمون التعريف صحيحا ومنطبقا على معنى الإسلام لا يؤثر في وحدة مضمون التعاريف ودلالتها على معنى الإسلام ومقاصده. وكذلك تعريف الإسلام ببعض صفاته اللازمة له على أن يكون الغرض منه إبراز ناحية منه لضرورة مقتضى الحال الذي يقدره الداعية الخبير بثاقب فكره وطول تجاربه كأن يقول في تعريفه حينا: الإسلام دين التوحيد وحينا آخر : الإسلام دين العلم وتارة أخرى الإسلام : دين العدل.

من خصائص هذه الدعوة

وإذا عرفنا أن موضوع الدعوة الإسلامية التى نحن بصددها هو الإسلام الذي أوحى الله تعالى به إلى الأنبياء والرسل جميعا في جميع الازمنة والأمكنة ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور الهادي لهم في درب الحياة لكي ينالوا رضى خالقهم ويسيروا في طريقه المستقيم ، ثم أكمل جوهر هذا الدين وأتم أصوله وختم حلقات سلسلة النبوة بخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأمره بتبليغه إلى الناس كافة . ومجموع ما أنزله الله عليه هو القرآن والسنة وهو الإسلام وهو دين الله المرضى عنده والمطالب به الإنسان وعليه يكون الثواب والعقاب والسعادة في الدارين . وإذا عرفنا هذا كله فيجب على الداعية ، أولا وقبل كل شيء أن يعلم بعض الخصائص التي يمتاز بها الإسلام عن غيره تميزا واضحا بارزا لكي يقدمه إلى مدعويه على بصيرة ويقين واقتناع فيقبلون عليه بشوق وشغف ورغبة . ويمكن لنا تقسيم هذه الخصائص إلى خمسة أمور من حيث الصفات اللاصقة به التي لا تنفك عنه:

١ - مصدر الإسلام :

يمتاز الإسلام تميزا واضحا عن جميع الشرائع البشرية من حيث مصدره لأن مصدره رب البشر. وجميع الأحكام والمناهج التي وردت في الدين الإسلامي من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى [هو القرآن الكريم] أو بالمعنى دون اللفظ وهو السنة النبوية . وإليه يشير القرآن بقوله : ((وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)) { سورة النجم – ٣} .

وأما الأدلة القاطعة المعجزة الدالة على أن الإسلام من عند الله تعالى وأن كل آية في القرآن هي من عند الله وأن سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هي الأخرى بوحي منه تعالى واجبة الاتباع فنصوص القرآن التالية :

١ – ((من يطع الرسول فقد أطاع الله)) { النساء – ٧٠ } .

٢ – ((قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين)) . { آل عمران – ٣٢ } .

٣ – ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) { الحشر – ٧ } .

٤ – ((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)) { الأحزاب – ٣٦ }

٥ – ((ومن يطع الرسول يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يذبه عذابا أليما)) { الفتح – ١٧ } .

٦ – ((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)). { آل عمران -٦٢ } .

٧ – ((فليحذر الذين يخالفون عن أمه أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)) . { النور – ٦٢ } .

ويترتب على كون مصدر الإسلام هو الله تعالى كماله من كل النواحي وخلوه من كل أنوع النقص لأن صفات الصانع الحقيقي تظهر فيما يصنعه ولما كان الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ويستحيل في حقه خلاف ذلك ، فإن أثر هذا الكمال يظهر في شرعه من أحكام ومناهج وقواعد . وأن الخالق الحقيقي للإنسان هو الذي يعرف جميع جوانب حياته في الدنيا والآخرة وهو المحيط بجميع شئون خلقه وهذا بخلاف ما يصنعه الإنسان ويشرعه فإنه لا يخلو من معاني النقص والجهل لأن عقله مخلوق وعلمه محدود ، وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والشرائع التي يصنعها العقل الإنساني .

وإلى هذه الخاصية التي يمتاز بها الإسلام عن الشرائع البشرية كلها تشير هذه الآيات القرآنية :

١ – ((وإنك لتلقى القرآن من لدن حكم عليم)) { النمل – ٦ } .

٢ – ((تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين)) { السجدة – ٢ } .

٣ – ((وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا الله لعلكم ترحمون)) { الأنعام – ٥٥ } .

٤ – ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)) { المائدة – ٣ } .

٢ – واقعية الإسلام :

الإسلام يعطي الجواب الصحيح الحق لكل سؤال يخطر ببال كل إنسان عاقل عن حقائق الحياة البشرية في كل زمان ومكان وبيئة ، وعلى سبيل المثال فإن من الأسئلة الهامة التي شغلت – ولا تزال تشغل – عقول البشر في القديم والحديث وهي أفكار ترد على ذهن كل إنسان كلما تفكر في أمور الحياة أو شاهد الموت أو القبر لأحد المقربين إليه ، أولا : ما هي حقيقة هذه الحياة ؟ فكيف خلقنا ؟ ومن أي شيء خلقنا ؟ فيجد جوابا حقا وواقعيا في القرآن . ويبين أن الإنسان لم يكن شيئا وكان معدوما فخلقه الله تعالى من العدم وخلقه من النطفة التي تخرج من صلب الأب وترائب الأم ، وتخبر الآيات التالية عن تفاصيل خلقه من واقع الحقائق المشاهدة التي لا يتسرب أدنى شك إلى ذهن أي إنسان عاقل له أدنى فهم وإدراك :

١ – ((هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . وإنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)) { الإنسان – ١ ، ٢ } .

٢ – ((فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)) { الطارق – ٥ } .

ويبين القرآن أن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين أو تراب وكان خلق نسله وذريته من نطفة من مني يمنى فيقول :

٣ – ((وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون)) { السجدة – ٧ – ٩ } .

٤ – ((ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)) { المؤمن – ١٢ – ١٤ } .

٥ – ((يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم

لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)) { الحج – ٥ } .

وثانيا : ما هو الهدف والغاية من خلق الإنسان ؟ وبعبارة أخرى : لماذا خلق الإنسان ؟ ويبين القرآن الكريم أن الإنسان لم يخلق عبثا فيقول :

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون)) { المؤمنون – ١١٥ } .

وكذلك لن يترك الإنسان سدى فيقول :

((أيحسب الإنسان أن يترك سدى)) { القيامة – ٣٢ } .

ثم يقول محددا وموضحا الغاية القصوى من خلق الإنسان : ((وما خلقت الجن والإنسن إلا ليعبدون)) { الذاريات – ٥٢ } والعبادة تتضمن جميع أنواع حركات الإنسان وسكناته حيث يعيش بالانقياد التام لأوامر الله تعالى رب العالمين ويجعل شرع الله الذي وضعه للإنسان منهج حياته بتمام الرضى والقبول . وهذه العبادة تشمل معرفة خالقه تعالى ومحبته واتباع مناهجه في جميع شئون حياته فيظفر بالسعادة الحقيقية ورضوان الله في الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وتصير حياته ذات معنى ومغزى ولن تكون سدى وعبثا .

ثم يأتي سؤال ثالث مترتبا على الأجوبة المذكورة للسؤالين السابقين فهو: إذا جاء الإنسان من العدم بإرادة الله تعالى وخلقه وتدبيره كما شاء وما جاء عبثا بل خلق لعبادة الله بمعناها الواسع فإلى أين مصيره بعد موته ؟ ويجيب القرآن أيضا على هذا السؤال بطريقة مقنعة ومرضية لكل من له قلب أو ألقى السمع بحيث لا يترك له أي مجال للحيرة أو الشبهة ، فيقول القرأن :

١ – ((كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون)) { العنكبوت – ٥٧ } .

٢ – ((الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون)) { الروم – ١١ } .

٣ – ((قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون { السجدة – ١١ } .

٤ – ((ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون)) { الزمر – ٧ } .

٥ _ ((وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون)) { سورة فصلت – ٢١ } .

وتبين هذه الآيات أن مصير الإنسان بعد موته هو الرجوع إلى خالقه لمجازاته على أعماله في حياته الدنيا ، وإدخاله الدار التي يستحق من الجنة أو النار . وتجيب الآيات الكريمة التالية على الشبهات التي تخطر ببال بعض ضعاف النفوس وقاصري النظر وناقصى الفكر أو الذين وقعوا تحت وطأة وساوس الشياطين ، حول مصير الإنسان المحترم وبعثه ومحاسبته ومجازاته في الدار الآخرة :

((أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)) { سورة يس – ٧٧ – ٨٣ } .

٣ – اعتدال الإسلام :

المقصد بالاعتدال هو عدم الافراط والتفريط في أي شيء وإعطاء كل ذي حق حقه . وحرص الإسلام على المثالية في جميع تصرفات الإنسان وأقواله وأفعاله وأفكاره وميوله . وإنما تتحقق هذه المثالية باتباع الاعتدال في شئونه كلها . وإليه يشير الحديث الشريف ((خير الأمور أوسطها)) ودل على ذلك قول الله تعالى في صفات المؤمنين الصادقين : ((والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)) { الفرقان – ٦٧ } وقال : ((كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)) { الأعراف – ٣١ } .

وبهذا يحرص الإسلام على إبلاغ الإنسان الكمال المقدور له بتناسق وفي جميع شئونه فلا يقبل على جانب واحد أو عدة جوانب ويبلغ فيها المستوى العالي من الكمال بينما يهمل الجوانب الأخرى حتى ينزل فيها إلى دون المستوى المطلوب ، فإن مثله مثل من يقوى يديه ويترك سائر أعضائه هزيلة ضعيفة . ويتحقق هذا الهدف المنشود من الإسلام باتباع المنهاج الذي جاء به رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك أمرنا الله تعالى بالتأسّى به فقال : ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) { الأحزاب – ٢١ } وعلى هذا الأساس فهم الصحابة الكرام مثالية الإسلام واعتداله فلم تأسرهم عبادة واحدة ولم تقيدهم عادة ، وإنما تقبلوا جميع العبادات والأحوال وبلغوا فيها المستوى العالي من الكمال فلم يحبسوا نفوسهم في مكان ولا على نوع من العبادة ولا على نمط معين من الأعمال وإنما باشروا الجميع ، فعند

الصلاة كانوا في المسجد يصلون وفي حلقات العلم يجلسون معلمين ومتعلمين وعند الجهاد يقاتلون وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون .

والاعتدال مطلوب حتى في العبادات فلا ينبغي للمسلم أن يرهق نفسه أو يؤذي جسده . ويدل على ذلك حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته . فلما أخبروا .... قالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم أما أنا فأصلي الليل أبدا . وقال الآخر وأنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال الآخر وأنا أعتزل النساء ... فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد . وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) .

وليس من مناهج الإسلام ووسائله تعذيب الجسد وتحميله مالا يطاق لبلوغ الكمال المنشود . ومن ظن ذلك فهو واهم . وحرمان الانسان نفسه من الطيبات والمتع الحلال ليس من مناهج الإسلام في بلوغ الكمال ، وإنما مناهجه في الاعتدال . والمطلوب لبلوغ الكمال تقوى الله وليس تحريم الطيبات وحرمان الجسد منها فقال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)) { المائدة – ٧٨ } ثم قال : ((وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)) { المائدة - ٨٨ } .

والحرج في شرع الإسلام مرفوع لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية والمثالية فقال تعالى : ((وما جعل عليكم في الدين من حرج)) { الحج – ٧٨ } وقال أيضا : ((لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)) { البقرة – ٢٨٦ } وبهذا المنهاج أوجد النظام الإسلامي من أتباعه أمة وسطا وهي التي وصفها القرآن الكريم : ((خير أمة أخرجت للناس)) { آل عمران – ١١٠ } فإن الخروج عن نهج الاعتدال والانحياز إلى الافراط والتفريط يخرجها من دائرة ((الوسطية وبالتالي من دائرة الخيرية)) التي هي من أهم الصفات اللازمة لأمة الإسلام .

٤ – شمولية الإسلام :

وشمول نظام الإسلام لجميع مجالات الحياة للإنسان وسلوكه وصف حقيقي ثابت للإسلام . وللإسلام في كل ما يصدر عن الإنسان حكم خاص . وهذا بخلاف المبادئ والنظم البشرية ، فإن الواحد منها له دائرته الخاصة التي ينظم شئونها ، ولا شأن له فيما عدا ذلك وعلى هذا فلا يمكن للمسلم أن يقول إن هذا المجال أنظم أموري فيه كما أشاء بمعزل عن تنظيم الإسلام . فلا يجوز للمسلم أبدا أن يسمح لغير نظام الإسلام أن ينظم أي جانب من جوانب حياته فإن فعل ذلك دخل في نطاق معنى قوله تعالى في القرآن الكريم

: ((أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون)) { البقرة - ٨٥ } .

وتدخل في نطاق شمول نظام الإسلام مجالات الحياة البشرية ، أمور العقيدة والأخلاق والعبادات وعلاقات الأفراد فيما بينهم من أحكام الأسرة والمعاملات والقضاء والدعوى والمعلامات مع الأجانب غير المسلمين المقيمين في دولة إسلامية وعلاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى ونظام الحكم وقواعده وموارد الدولة ومصارفها . وهكذا يشمل نظام الإسلام جميع حركات الإنسان وسكناته في جميع ظروفه وبيئاته وكيفياته وتصرفاته وعلاقاته ، بل ويشمل أحكام ومسائل وأخبار حياته الأخرى التي هي خير وأبقى .

٥ – عمومية الإسلام :

المراد بعمومية الإسلام أنه جاء لعموم البشر كما أنه عموم في كل زمان وفي كل مكان ولهذا فهو باق لا يزول ولا يتغير ولا ينسخ ، وإلى هذه الصفة اللازمة اللاصقة لنظام الإسلام يشير القرآن الكريم :((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)) { الأعراف – ١٥٨ } و ((ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)) { سبأ – ٢٨ } و ((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)) {الأحزاب – ٤٠ } وعموم النظام الإسلامي وبقاؤه في كل زمان ومكان وبيئة ومطابقته لكل منه يستلزم عقلا وعدلا أن تكون قواعده ومبادؤه وجميع ما جاء به على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان ، ومستوى يبلغه المجتمع البشري . ولا غرابة في ذلك لأن الخالق المدبر العليم الخبير هو الذي جعله عاما للناس في المكان والزمان وخاتما لجميع الشرائع وكاملا لكل مصالح البشر . وهو الذي قد أعلن بكل صراحة ووضوح : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)) { المائدة – ٣ } .

وحيث أن الإسلام ختم الشرائع السابقة كلها وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين ومع هذا الكمال والتمام لا داعي لمجيء شريعة أخرى ، وحيث لا شريعة آخرى فلا رسول آخر بعد محمد صلى الله عليه وسلم. والواقع أن الاسلام يحقق مصالح العباد في العاجل والآجل أي في الدنيا والآخرة ودرء المفاسد والأضرار عنهم في الدارين أيضا . وإلى هذه الرعاية الكاملة لمصالح البشر عاجلا وآجلا يشير القرآن في تعليل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . إذ قال : ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) { الأنبياء – ١٠٧ } .

وأن مصادر الأحكام الشرعية كلها مصادر ثابتة وحقة وهي كتاب الله والسنة النبوية وتتبعهما مصادر تبعية كالاجماع والاجتهاد بأنواعه المختلفة ، كالقياس والاستحسان والمصلحة المرسلة وهذه

المصادر كلها قامت على معان وأوصاف وأسباب ثابتة صالحة لكل مجتمع فاضل مثالي بحيث لا يحدث شيء جديد إلا وللشريعة الإسلامية حكم فيه إما بالنص الصريح أو بالقياس الصحيح . وبفضل هذه المقومات التي جعلت الإسلام نظاما شاملا عاما صالحا للجميع وفي جميع الأزمان والظروف ولم يعد نظاما جاء لطائفة معينة أو لجنس خاص أو لفترة معينة من الزمن أو جيل خاص من البشر بل هو الدين الكامل والنعمة التامة من رب العالمين .

الركن الثاني : صفات الدعاة

يحتاج الداعي في أداء مهمة الدعوة بطريقة مؤثرة ومنظمة إلى عدة صفات لازمة . وتعتبر هذه الصفات أهم مقومات عدة الداعي وأركانها . وفيما يلي مجوعة من هذه الصفات التي لا يستغنى عنها أي داع مسلم في كل زمان ومكان وبيئة .

الصفة الأولى : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في هديه في جميع مراحل الدعوة وظروفها فهو قدوة الداعي إلى الله ويقتدي به في سيرته في دعوته إلى الله خطوة خطوة . ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) . وأنفع شيء للداعي المسلم أن يتفقه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته في دعوته إلى الله منذ أن بعثه الله إلى أن اختاره إلى جواره الكريم . ويجب أن يفهم كل داع مسلم وواع ومخلص أن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي ترجمة عملية للمنهج الرباني للدعوة إليه الذي جاءت به آيات الله في قرآنه .

وما من حالة قط يمر بها الداعي إلى الله إلا يجد مثيلها أو شبيها لها أو قريبا منها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف تصرف إزاءها سيد الدعوة إلى الله وإمامهم . إن التفقه في السيرة النبوية إذا انضم إلى التفقه في القرآن ، لا سيما فيما يخص الدعوة إلى الله ، يجعل الداعي على نور من ربه وفرقان مبين يبين له الصواب في الأمور المشتبهة والدقيقة الحساسة . والمطلوب من الداعي المسلم أن يدعو إلى الله في كل وقت وفي جميع أحواله وطروفه بقدر حاله وقدرته . وأن القدرة هي مناط الوجوب وقدره فمن لا يقدر لا يجب عليه ومن يقدر فالواجب عليه يقدر قدرته .

وواجب الدعوة إلى الله ليس له وقت محدد كالصلاة والصيام ، فيؤدي المسلم هذا الواجب في جميع الأحوال والظروف حسب قدرته . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشغله عنها شاغل أبدا حتى في أحرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف فعندما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق

رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الاسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يتخل عن أداء وظيفة الدعوة إلى الله حتى وهو في طريقه مهاجرا إلى المدينة وأعداؤه يطلبونه في كل مكان وبكل الواسائل .

ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوما لم يشغله السجن وضيقه عن واجب الدعوة إلى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤياهم فقال لهما قبل أن يجيبهما ، كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الحكيم ((يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله واحد قهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) { سورة يوسف – ٣٩ – ٤٠ } . وقال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام ((قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا)) { نوح – ٥ }

وجدير بالذكر أن المطلوب من الداعي أن يدعو إلى الله وليس المطلوب منه أن يستجيب الناس . وقال تعالى في كتابه الحكيم ((وما على الرسول إلا البلاغ المبين)) فإذا كان الرسول غير مكلف إلا بالتبليغ فغيره من أفراد الأمة أولى أن لا يكلف بغير التبليغ . وأما الهداية الواردة في قوله تعالى مخاطبا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ((وإنك لتهدي إلى صراط المستقيم)) فهي هداية التبليغ والبيان والدعوة وليست هداية الاستجابة وهداية الوصول إلى الحق فإن هذه الهداية بيد الله تعالى وحده بنص قوله تعالى ((يهدي من يشاء ويضل من يشاء)) وقوله تعالى أيضا ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) وغاية ما في الأمر أن لله الحجة على عباده ، ولو شاء لهداهم أجمعين ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وإذا نظرنا من زاوية المنطق العقلي والقاعدة الأصولية أيضا لنرى أن الإنسان لا يكلف بفعل غيره لأن هذا من قبيل تكليف مالا يطاق وإنما يكلف الإنسان أن يفعل هو فعلا معينا يتعلق بغيره وقد يحمله على الفعل كالدعوة إلى الله وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالمسلم مطالب ومكلف بأن يأمر بالمعروف ، وقد يستجيب المأمور فيكون أمر الآمر سببا لفعل المأمور وقد لا يستجيب المأمور ، وإذا كان المطلوب من المسلم أن يدعو إلى الله وليس المطلوب منه أن يهدي الناس ، فعليه أن يستمر على الدعوة بلا كلل ولا ملل ولا فتور لأن واجبه البلاغ والتبيين وإن لم يستجب له أحد ، وهكذا كان رسل الله يدعون أقوامهم مدة حياتهم فمنهم من استجاب له قومه أو بعضهم ومنهم من لم يستجيب له إلا أفراد قليلون جدا . وقد لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما .

وأن الدعوة إلى الله واجب يؤديه الداعي امتثالا لأمر الله ، ولا يجوز له التخلي عنها لكونها لا تفيد في ظنه في بيئت خاصة أو في مجتمع خاص بل يجب عليه القيام بمهمته ووظفيته فإن الذي عليه الدعوة لا القبول . وفضلا أن اليأس حرام واحتمال الإجابة قائم ، لأن الأمور بيد الله تعالى وقلوب العباد يقلبها كيف يشاء فلا يستطيع الداعي أن يقطع بعدم الإجابة ، وأن كلمته في الدعوة إلى الله، لا سيما عند

شيوع التمرد على الله وانتشار الالحاد والجحود ، هي أحسن كلمة تقال في الأرض وصاحبها بهذه الصفة من الصلاح في نفسه مع استسلامه لله رب العالمين . وأصدق الموازين في هذا الشأن قوله تعالى : ((ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)) .

الصفة الثانية : الثقة الكاملة بالله وبنصره وإعانته وعليه أن يستحضر دائما في قلبه أن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير والضرر والنفع والمنع والعطاء وأن الله تعالى يكفي من يتوكل عليه ويفوض الأمور إليه . وما دام الداعي المسلم ينصر الله بالدعوة إلى دينه فإن الله ناصره وقال عز وجل ((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)) وقال الحكاية عن موسى وهارون عليهما السلام: ((قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)) . وهذه معية التأييد والنصر والحفظ لعباده المتقين الداعين إلى دينه .

وإذا اعتمد الداعي على الله في جميع أموره فإنه سيزهد حتما في الاعتماد على أي مخلوق ، ويتوجه بكليته إلى خالقه ومولاه وناصره وقال تعالى ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)) . وبهذا الاتصال الوثيق بالله والثقة به تهون على الداعي المسلم المخلص الصعاب وينتزع من قلبه الخوف من الناس ولومة لائم .

الصفة الثالثة : الشفقة والرحمة في جميع شئون الدعوة والمدعوين . وعلى الداعي أن يشعر دائما أنه يدعو خلق الله إلى ما يرضى الله . والمسلم رقيق رحيم وشفيق على عباد الله . وأما التحلّي بهذه الصفات الفاضلة فتترك أثرا طيبا حلوا في نفوس المدعوين فلا يغضب لنفسه وإنما يغضب لربه إذا انتهكت محارمه ، ولا يؤديه هذا الغضب إلى حد الطيش والتهور ولكنه غيرة وحزن على ما رأى من مخالفة المسلمين لشرع الله تعالى . ويقوم بتشخيص الداء في المدعوين بهدوء وروية ومعرفة الدواء والتأكيد على ذلك وبإزاحة الشبهات التي تمنع المدعوين من رؤية الداء والاحساس به وترغيبهم في استعمال الدواء وترهيبهم من تركه . فعلى الداعي أن لا يتهور ويغضب ويثور بدون التفكر في العواقب الوخيمة التي تترتب عليه . وربما يحصل به تعويق له عن مواصلة الدعوة إلى الله تعالى وغرس معاني العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة في النفوس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى الأصنام تلوث أطهر بيت من بيوت الله على وجه الأرض وتحيط به ولم يرفع يده لتحطيمها ولم يأمر أصحابه بتكسيرها ، ولو أراد لأمر فورا ولو أمر لنفذ أصحابه المؤمنون ما يأمرهم به ولكنه لم يفعل ذلك آنذاك لأن المسألة ليست مسألة تكسير بعض الأصنام وإحداث ضجة صارخة وإنما الغاية المنشودة فتح القلوب حتى تفقه الحق ولا تبديد الجهود والطاقات في الشكليات والجزئيات . وكان ينتظر اليوم الذي تخر فيه تلك الأصنام فجاء ذلك اليوم في يوم فتح مكة فكان صلى الله عليه وسلم يشير بعصاه إلى الأصنام وهو يقول : ((لقد جاء الحق وزحق الباطل إن الباطل كان زهوقا)) فتخر إلى الأرض مكسرة محطمة تحت أقدام المؤمنين بدون إراقة دماء وإثارة مشاكل لا طائل تحتها . ولا يعلم أحد إلا الله ماذا كان يحدث لو أقدم الرسول أو أحد من أصحابه المؤمنين على رفع يده لتحطيم تلك الأصنام غيرة وغضبا قبل الأوان ! .

الصفة الرابع : الإيمان العميق والثبات الذي لا يتزعزع مهما صادفته محنة أو شدة ومهما كانت حاله من ضعف وقلة الوسائل . ومهما كان حال الكفرة والمعارضين من قوة ومنعة ، ولا يضعف إيمان الداعي انصراف الناس عنه أو عدم إجابتهم له . كما لا يدل انصراف الناس عنه أنه مقصر في دعوته ما دام قد أفرغ جهده واتبع المنهج الصحيح في تبليغ دعوته ، وكلما ازدادت محن المسلمين وصارت لأعداء الإسلام وسائل كثيرة تثير الشبهات والشكوك وضعف الإيمان في نفوس المسلمين ، تشتد ضرورة هذه الثقة وهذا الإيمان للداعي المسلم الصادق ، ويجب أن لا تدهشه هذه المحن وهذه الأحوال بل يجعلها دافعا للمزيد من بذل الجهد وطلب العلاج النافع لما أصاب العالم الإسلامي من علل وأمراض . وعلى الداعي الواعي أن يستحضر في ذهنه ما حدث للدعاة السابقين من المحن والشدائد أدهى وأمر من هذا كله، فكيف واجهوها وعالجوها بصبر وثبات وإيمان وثقة بالنصر النهائي ! .

الصفة الخامسة : معرفة غاية الإنسان في هذه الحياة ومركزه بين الناس ويجب على الداعي المسلم أن يعرف أولا وقبل كل شيء أن التعلق بالدنيا والاغترار بمباهجها وملذاتها يقعده عن التطلع إلى الآخرة والعمل لها وإتعاب الجسد في سبيل الله والدعوة إليه ولا يقوي على مهام الدعوة إلى الله تعالى وتحمل المشقات في سبيل إعلاء كلمة الله وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الناس صنفان : صنف يجعلون غايتهم الأكل والشرب والتمتع بملاذ الجسد وليس وراء هذه الغاية عندهم غاية أخرى ، فهم كالدواب والبهائم لا يختلفون عنها إلا في الصورة والشكل ومركزهم بين الناس مركز الإضلال ولإفساد وفي الواقع هم أشقى الخلق ففي الآخرة هم في خسران مبين وقال تعالى : ((والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)) .

وصنف آخر : يعرفون حقيقة الدنيا والغاية المنشودة من هذه الحياة ويوقنون أنهم ما خلقوا عبثا وقد خلقوا لعبادة الله الخالق المالك وأنهم إليه راجعون . وقال تعالى : ((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)) وقال : ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) . وأن زوال الدنيا ومفارقتها وحياة الآخرة وبقاءها أمر مؤكد . وعلى كل إنسان عاقل أن يتجافى الغرور بالدنيا الفانية ويؤثر الآخرة الباقية . فقال الله تعالى : ((قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى)) .

وهذه المعرفة تساعد الداعي المسلم على حمل نفسه على الطاعة وإبعادها عن المعصية . والجهاد بلسانه وماله وقلمه وبجميع طاقته في سبيل نشر الحق والدعوة إليه وإنارة الطريق أمام الناس وقيادتهم إلى الغاية العظمى من هذه الحياة الدنيا وهي عبادة الله وحده وابتغاء مرضاته والنجاة الأبدية .

وأن من أمارات هذا الإيمان وهذه المعرفة عدم التسويف في العمل واغتنام كل فرصة لخدمة دين الله وإنارة البشر بنور الإسلام لأن المؤمن العارف بحقيقة الدنيا يحس بالغربة في هذه الحياة وأنه قد يرحل عنها في أية لحظة ، وقال عليه الصلاة والسلام : " ما لي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت

شجرة ثم راح وتركها '' . وقال أيضا : '' إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح '' .

فإذا عرف الإنسان أنه لا يدري متى ينادي عليه بالرحيل ، لا يغتر بوسواس الشيطان أنه شاب قوي أو موفور الصحة ومستريح البال ويرى بثاقب فكره الشباب والأقوياء والأصحاء الذين شربوا كأس الموت مبكرين وهم الآن تحت التراب. وهذه المعرفة تفرغ ما في قلبه من إغراء التعلق بالدنيا وتدفعه إلى الإقبال على الآخرة ونيل مرضاة ربه وعلى رأسها الدعوة إليه والجهاد في سبيله بشوق وخفة ونشاط ولا يعيقه عن ذلك تعب ولا سفر ولا سهر ولا بذل وتضحية ، لأن ذلك كله من الزاد المطلوب في سفره الطويل إلى دار هي خير وأبقى ((وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)) .

الصفة السادسة : العلم بموضوع الدعوة وشئونها وأهدافها وملابساتها ، فإن العلم بما يدعو إليه الداعي وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه ضروري جدا لتكون دعوته على بصيرة وبينة لأن ما يدعو الناس إليه من الدين ومنسوب إلى الله سبحانه وتعالى فيجب أن يكون عالما بشرع الله وبالحلال والحرام وبما يجوز وبما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ وكيفية الاستدلال من كتاب الله وسنة رسوله ومن أدلة الشرع الأخرى . وهذا العلم الدقيق هو الذي يحميه من الوقوع في الخبط والخلط . وأن الخطأ الذي يقع من الداعي المصلح فيكون ضرره أكثر وإفساه أشد . وإذا كان سبق العلم لأي عمل ضروري ، فإنه أشد ضرورة للعامل في حقل الدعوة الإسلامية .

وأن العلم المصحوب بالفهم الدقيق هو المطلوب في الإسلام ، وليس مجرد حفظ بعض المتون والشروح والأحكام وترديدها على اللسان ويقوم الفهم الدقيق على تدبر معاني القرآن وإطالة النظر فيها والتغلغل في مقاصدها ومراميها فإن الله تعالى أنزل كتابه ليتدبر الناس آياته لا لمجرد أن يتلوه بلا فهم وتدبر . وقال تعالى : ((كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)) . وكذلك دراسة السيرة النبوية في جميع مرافق الحياة فإن هذه الدراسة بالفهم الدقيق تميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف الناس فيه وتعطيه فرقانا ونورا يمشي به في طريق الدعوة إلى الله وتمنحه قوة في قلبه وانشراحا في صدره وغاية في الدنيا ومغزى ومرموقا لهذه الحياة الدنيا .

الركن الثالث : اخلاق الدعاة

إن الأخلاق الإسلامية التي بينها الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصبغ بها صحابته الكرام في سلوكهم لهي لازمة لكل مسلم . ولكن الداعي المسلم يحتاج إلى نوع معين من تلك الأخلاق أكثر مما يحتاجه غيره من عامة المسلمين وخاصتهم لصلتها الوثيقة بعمل الداعي لتحقيق النجاح في مهمته . ومن جملة هذه الأخلاق :

الإخلاص والصدق : يجب على الداعي المسلم أن يراعي الإخلاص والصدق في أقواله وأعماله بحيث يظهر أثر صدقه وإخلاصه في ملامح وجهه وصوته . ولا شك في أن ظهور أثرهما في وجه الداعي وصوته يؤثر في قلب المخاطب ويحمله ذلك على قبول قوله واحترامه إذا كان منصفا غير مكابر وطالبا للحق بدون عناد . وأن الإخلاص في مجال الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس يحدث في قلب الداعي كمال العزم وقوة الارادة وتجاوز العوائق . وكما ينشرح به صدره ويزداد تشوقه إلى المبادرة إلى أداء ما افترضه الله عليه والدعوة إلى دينه.

ومنها الصبر : وإذا كان الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان لاجتياز الامتحان بنجاح في جميع مجالات الحياة ولبلوغ ما يريده من أمور الحياة فإن الصبر للداعي المسلم أشد ضرورة له من غيره ، لأنه يعمل في ميدانين ، ميدان نفسه يجاهدها ويحملها على الطاعة ويمنعها من المعصية ، وميدان خارج نفسه وهو ميدان الدعوة إلى الله تعالى ومخاطبة الناس في موضوعها فيحتاج إلى قدر كبير من الصبر في المجالين : مجال النفس ومجال الدعوة حتى يستطيع تجاوز العقبات وتحمل العناد والمكابرة من البعض والأذى والاستهزاء من الآخرين . ومن الوسائل التي تسهل النفس على التحلى بصفة الصبر الجميل استحضار ثمرة هذا الصبر وكذلك استحضار نعم الله التي لا تعد ولا تحصى فتهون عليه مصيبته ويقل وقعها على نفسه .

فلا بد للداعي أن يتذكر دائما الجزاء العظيم الذي أعده الله تعالى للصابرين الصادقين فيترك السخط على البلاء والمصائب ولا يشكو حزنه وبثه إلا إلى الله فإن الصبر الجميل ينافيه الشكوى للمخلوق لأن الباعث على صبره هو طاعة الله وطلب مرضاته . وقد ذكر القرآن الكريم الصبر في أكثر من ثمانين موضعا ومنه قوله تعالى : ((إن الله مع الصابرين)) . وقوله : ((والله يحب الصابرين)) وقوله : ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)) وقوله : ((واستعينوا بالصبر والصلاة)) وقوله : ((يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)) .

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تحث على الصبر وتبين فضلها . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : ((ما أعطى أحد عطاء خيرا له من الصبر)) وقوله الجامع الحكيم ((عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)) . وأما المطلوب من الداعي المسلم أن يقوم بتبليغ دعوة الله إلى الناس على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة طبقا للمنهج المحمدي فإذا أدت هذه الوسائل إلى أذى يصيب الداعي فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع وبالثبات لا بالفرار. ويتذكر قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : ((فاصبرلما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)) . و((واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)) .

وإذا كان إبتلاء الدعاة إلى الله مما جرت به سنة الله في الخلق في الحياة البشرية لأمر اقتضته حكمته وليظهر ما في نفوسهم من إيمان وإخلاص وليثابوا بجزاء عظيم ، فلا للداعي أن يستدعي عمدا الأذى لنفسه بل عليه أن يعمل على عدم وقوعه وإذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء ما جاء في إرشادات القرآن والسنة النبوية . والمراد بضرورة الصبر وحتمية الابتلاء في سبيل الدعوة إلى الله هو أن الداعي إذا وقع عليه ضرر أو أذى بالرغم من التزامه بالسير المشروع في الدعوة فعليه أن يصبر الصبر الجميل ويستعين بالله ويواصل السير بايمان بنصره النهائي الموعود لعباده المؤمنين . وينبغي أن يستعاد إلى الأذهان في هذا الصدد أنه لا يجوز في

الإسلام أبدا إلقاء النفس إلى التهلكة والمهانة والمذلة كما لا يجوز للمسلم أن يسلم نفسه لأهل الباطل يؤذونه ويذلونه . وقال ربنا سبحانه وتعالى : ((ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)) { البقرة – ١٩٥ } ومن إرشادات الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم : ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله قال يتحمل من البلاء ما لا يطاق)) . .قد أوصى عليه السلام أسامة بن زيد حين جعله أميرا على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بأيام فقال : ((ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكفف بأسهم)) . ومما يمن الله تعالى به على المؤمنين قوله في القرآن الكريم : ((وكفى الله المؤمنين القتال)) . وهذا يشعر بأن عدم احتياج المؤمنين للقتال لكفاية الله تعالى يعتبر من نعمة على المؤمنين والقتال فيه أذى وألم فلو كان تعريض المسلم نفسه للابتلاء والأذى مطلوبا لذاته لما كان عدم الاحتياج إليه مما يمن الله به على المؤمنين .

وينبغي لكل مسلم ينصب نفسه لمهمة الدعوة الى الله أن يستحضر في ذهنه دائما حقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : عدم جواز تبديد طاقاته وجهوده بلا فائدة تعود إلى خدمة الإسلام وليس من الفائدة أن يقول الناس أن فلانا تحمل الأذى في سبيل الدعوة وضحى بنفسه في سبيل الله بل قد يكون تحمل الأذى بهذا الدافع ولهذا الغرض طلبا للسمعة وبغية الدخول في التاريخ بأقصر الطرق وأسرع الوسائل سببا لغضب الله ونقمته . وأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك لله فلا يجوز إتلافها وإتعابها بطريقة عشوائية أو انتحارية كما يروجها المخرفون .

الحقيقة الثانية : ضرورة دفع البلاء والأذى عن النفس وعدم الاستسلام له بحجة تحمل الأذى في سبيل الله وأن سيد الدعاة وإمام الهداة نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أوضح هذه الحقيقة عمليا من خلال مراحل الدعوة المحمدية التي مرت بها ليكون نبراسا للدعاة من أمته في جميع الأزمنة والأمكنة . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة فرارا بدينهم وتخلصا من أذى قريش . فدل ذلك على أن دفع البلاء أمر مطلوب إذا أمكن دفعه وأن تسليم المسلم نفسه للأذى والضرر حيث يمكنه الخلاص ليس بالأمر المطلوب بل ولا المشروع وعندما انسحب خالد بن الوليد بمن معه من جند المسلمين في معركة مؤتة ودخولهم المدينة المنورة عابهم بعض المسلمين في المدينة ووصفوهم بالفرار الممنوع في ساحة القتال فقالوا : ((يا فرار ، فررتم في سبيل الله)) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى)) . فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الانسحاب والتقهقر من جانب خالد وجنوده من ساحة المعركة وعودتهم إلى المدينة المنورة بنظرة بعيدة المدى في تاريخ الدعوة والفائدة المترتبة على ذلك الانسحاب إذ رأى في انسحابهم نوعا من النصر لتخلصهم من القتل ومن أذى المشركين واحتمال أسرهم والاحتفاظ بهذه القوة لكرة أخرى في معركة أخرى أكثر نفعا للإسلام والمسلمين .

ومنها خلق الرحمة :

من أخلاق الداعي الضرورية أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يرحم من لا يرحم الناس)) . وقال أيضا : ((الراحمون يرحمهم الرحمن)) . ومن صفاته صلى الله عليه وسلم رحمته وشفقته على أمته فقال تعالى : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)) . ولا بد أن يكون كل شخص يقوم بالدعوة إلى الإسلام متحليا بأخلاق إمام الدعاة

من الحرص على مصلحة المؤمنين والرأفة والرحمة بهم وإرادة الخير والنصح لهم . وأنه يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم ما يحب الإنسان المؤمن لنفسه الهدى والفوز برضوان الله تعالى . وأن الداعي الرحيم لا يكف عن دعوته ولا ييأس بسبب إعراض بعض الناس أو التمرد . وأنه يعفو ويصفح عنهم في حق نفسه . وقال تعالى مرشدا ومربيا رسوله الكريم : ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) .

ويجب أن يعلم كل داعية علم اليقين أن خشن الطبع وغليظ القلب لا ينجح في عمله ولا يقبل الناس عليه وإن كان ما يقوله حقا وصدقا . هذه هي طبيعة البشر . وأن قبول قول الناصح يستلزم إقبال قلب المنصوح إليه ولا يحصل هذا الاقبال مع خشونة الطبع وغلظة القلب . فقال تعالى : ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)) . فكيف يمكن تصور عدم الانفضاض عن الداعي إذا كان فظا غليظ القلب مهما كانت مكانته العلمية والاجتماعية ؟ لأنه كان ممكنا وقوعه بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو حصل ما ذكرته هذه الآية الكريمة مع أن الرسول لا ينطق عن الهوى وأنه مؤيد بالحق وبالعصمة الربانية . ينبغي للداعي أن يكتسب خلق الرحمة ويعالج نفسه من داء الخشونة وبذاءة الكلام قبل أن ينصب نفسه لمهمة الدعوة .

ومنها خلق التواضع :

قد جاءت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية نصوص عديدة في النهي الصريح عن التكبر والتعالي . ومنها قوله تعالى : ((ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور)) . وقال أيضا : ((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)) . وقال صلى الله عليه وسلم : ((لا يدخل الحنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) . وأن التكبر جهل وحماقة ودليل على أن صاحبه لا يعرف قدر نفسه وحقيقة أمره فلو عرف ربه ونفسه لعلم أن الكبرياء لله وحده وجاء في حديث قدسي أن الله عز وجل قال : ((العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته)) . ولو عرف المتكبر أن أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة وهو الآن سلة تحمل قاذورات نتنة لخجل من نفسه ووقف عند حده وعاد إلى صوابه .

وحقيقة الكبر استعظام نفسه واستصغار قدر غيره كما جاء في الحديث الشريف : ((الكبر بطر الحق وغمط الناس)) أي رد الحق واحتقار الناس . وسبب الكبر عجب الإنسان بنفسه لعلمه أو ماله أو جاهه أو نسبه أو سلطانه وغير ذلك من الأشياء التي تدعو الاعجاب بالنفس ناسيا أن الله تعالى هو المنعم بهذه الأشياء وإن شاء سلبها منه . وعلاج هذا الداء الخبيث القاتل لصاحبه هو اكتساب صفة التواضع عن طريق معرفة ربه ونفسه . ويعرف أن الكبرياء لرب العزة وحده ولا يجوز لأي إنسان أن يسمح لذرة من الكبر أن تتسرب إلى قلبه فإنها جرثومة خطرة فتاكة كثيرة التوالد تطمس نور الإيمان وتكدر الأعمال الصالحة وتجعله أمام الناس مرذولا وممقوتا .

وأن الداعي في أشد الحاجة إلى التحلي بخلق التواضع لأنه يخالط الناس ويدعوهم إلى الحق وإلى أخلاق الإسلام فكيف يكون بعيدا عن خلق التواضع ؟ وهو من دعائم أخلاق الإسلام وقال الله تعالى مؤدبا رسوله الكريم أحسن تأديب في مجال معاملته مع أتباعه : ((واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)) . وقال أيضا : ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم)) .

إن من طبيعة الناس أنهم لا يقبلون قول من يتكبر عليهم ويحتقرهم وإن كان ما يقوله حقا وصدقا فإنهم ينفرون عن المتعالي والمستصغر للناس ، ولا يلتفتون إلى كلامه ووعظه وإرشاده . وربما يكون سببا إلى كرههم الحق وهروبهم من سماع مثل هذا الكلام منه ومن غيره فيكون سبب لنفرة الناس من الدعوة الى الحق. وعلى الداعي أن ينتبه إلى هذا الأمر جيدا . وأن الداعي الواعي يزداد تواضعا لله تعالى كلما وفق في دعوته ونجح في مساعيه وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد دخل مكة فاتحا وهو منكس الرأس خاشعا تواضعا لربه واعترافا له بفضله . وينبغي أن يفقه الداعي أيضا أن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه وعليه أن يعرف أيضا أن جمع ما عنده هو محض فضل الله عليه .

ومنها حسن المعاملة :

إن طبيعة الدعوة الإسلامية تقتضى المخالطة مع الناس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن أكرمه الله تعالى بالنبوة وأمره بالتبليغ عاش مع الناس وخالطهم وذهب إلى مجالسهم ومحافلهم يدعوهم إلى الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وكذلك فعل أصحابه الكرام خالطوا الناس وبثوا فيهم ما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم والدين والأخلاق والمعاملات في شتى مرافق الحياة البشرية . وأن المخالطة مع الناس ضرورية لأعمال الدعوة وأداء فرائض الإسلام العديدة ، فالإسلام ليس معنى خاصا بالفرد – كما يتوهم البعض – بل هو أيضا عمل المسلم خارج نفسه . والمخالطة لا بد منها أيضا لأن الإنسان اجتماعي بطبعه ولا يستطيع العيش بمفرده (ولو استطاع أحد أن يعيش كذلك في ظروف خاصة لكان أمرا شاذا لا يقاس عليه ولا يستطيع جميع الناس متابعته عليه) .

والداعي المسلم يقيم علاقاته مع الناس سوء في مجال المخالطة معهم في أمور الدنيا أو أمور الدين مثل فرائض الإسلام ومستحباته التي لا يمكن تأديته إلا بالمخالطة مع الناس وتعاون ، مثل صلاة الجمعة والجماعة في الصلوات الخمس المكتوبة والعيدين وتشييع الجنائز ، وعيادة المرضى وكذلك تعلم أمور الدين وتعليمها ، على أساس الحب في الله والبغض في الله . وفي هذه الحالة يختار لصحبته ورفقته العناصر الصالحة المستقيمة من الناس ويعتز بهم ويحافظ على أخوتهم ويفي بحقوقهم . وفي الوقت نفسه يعرض عن العناصر الفاسدة ويرد إساءتهم بالحسنى والحكمة والصفح الجميل . ويقول الله تعالى في صفاتها هؤلاء المؤمنين الصالحين الذين هم العناصر الهامة في سبيل خدمة الدعوة الإسلامية : ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)) ثم قال : ((وإذا مروا باللغو مروا كراما)) .

ويتبين من هذا أن سلوك المؤمن مع من لا يصاحبه ولا يرافقه لفسقه أو عصيانه لأوامر الله عز وجل هوالنصح ولين الكلام إذا أمكن وإلا عدم الكلام معه في هذه الحالة زجرا له عن بغيه وإظهارا لإنكاره عمله . أما بعض الروايات الواردة على ألسنة بعض العلماء الصالحين فهو أمر يتعلق بأحوال طارئة وظروف إستثنائية فليس هو القاعدة العامة في أي زمان ومكان لأن وجوب الدعوة إلى الله أمر ثابت في الشرع ولا يمكن التخلي عنها والمخالطة مع الناس هي المقدمة الأولى لتبليغ الدعوة فكلما يزداد بعد الناس عن الحق وقربهم للباطل وتكالبهم على الماديات يشتد وجوب مساهمة كل مسلم في سبيل الدعوة إلى الحق بقدر طاقته وكل في مجاله ودائرته .

ولكن هناك نوع من العزلة يحتاج إليها الداعي – إن صح هذا التعبير – في ظروف خاصة ومحدودة فإذا لم يجد الداعي الإجابة عند قوم وبدا له أن بذل الجهد معهم في الوقت الحاضر عبث وأن احتمال إجابتهم ضعيف أو أن أذاهم لا يطاق فيتحول عنهم إلى غيرهم ويعتزل الأولين لأن جهد الداعي محدود ووقته محدود فيصرفه إلى مجال أجدى وأضمن وأما سلوك الداعي فهو سلوك تقريب القلوب إلى مبادئ الإسلام ومحاسنه بعيدا عن الحزازات الشخصية والأغراض الذاتية .

الركن الرابع : أساليب الدعوة

إن الداعي إلى الله تعالى طبيب القلوب والأرواح فعليه أن يسلك في معالجة الأرواح والقلوب نفس الأسلوب الذي يسلكه طبيب الأبدان فيشخص الداء أولا ثم يعين العلاج ولا يقف عند أعراض الداء محاولا علاجها تاركا أصلها وعلتها ، وإذا قام الداعي بتشخيص أصل داء البشر – في القديم والحديث – فيجد أنه كامن في جهلهم بربهم واغترارهم بالدنيا وغفلتهم عن الآخرة . ومن أعراض هذا الداء الكفر بالله تعالى والرفض لعبادته وضعف العقيدة عند الذين عندهم أصل الإيمان وانتشار الشرور والمفاسد بين الناس .

١ – تشخيص الداعي وتعيين العلاج :

أما معالجة هذا الداء الأصلي المنتشر في الناس فهي التأكيد على معاني العقيدة الإسلامية فإذا استقام هذا الأصل واستجاب له المدعوون سهل عليهم الالتزام ببقية أصول الإسلام وفروعه . وإذا آمن الإنسان بإخلاص وصدق نية بالله ربا وإلها وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وبالبعث بعد الموت وبالحياة الأخرى فيقدم على العمل الصالح لنيل رضوان الله تعالى والنجاة في الآخرة . وهذا هو الاسلوب الذي دل عليه القرآن وسار عليه الرسول عليه الصلاة والسلام من التأكيد على العقيدة مثل الإيمان بالله ووحدانيته في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والإيمان باليوم الآخر ثم التأكيد على القيام بالعمل الصالح في جميع مجالات الحياة البشرية . والتأكيد على العقيدة الصحيحة والتذكير بمعانيها لازم للداعي الذي يقوم بدعوته بين المسلمين أنفسهم لأنه يساعد على تقوية عقيدة ضعاف العقيدة منهم وعلى تجلية معانيها أكثر فأكثر عند أقويائها كما يقيهم عن تسرب الوهن والضعف إلى قلوبهم المؤمنة . وهذا هو النهج القرآني السليم فكانت الآيات تنزل ببيان العقيدة الإسلامية حتى بعد الهجرة إلى المدينة المنورة وتختم آيات العبادات والمعاملات بأصول العقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر . وأما ابتعاد الداعي عن هذا النهج القرآني في الدعوة كالخوض فيما يهواه الناس وتعارفوا عليه استجابة لرغبات بعض المدعوين أو لرغبة في نفسه هو وكذلك القيام بتحليل الأمور تحليلا بعيدا عن مفاهيم العقيدة الصحيحة فكل هذا وذاك سوف يؤدي إلى البناء من السطح أو بلا أساس . وأما التأكيد على معاني العقيدة الإسلامية وتجليتها من الخرافات والخزعبلات فهو الدواء الأساسي لأصل الداء الذي يؤدي إلى الانحراف عن جادة الطريق وانتشار الخرافات في المجتمع .

٢ – إزالة الشبهات عن الدعوة والداعي :

إن المقصود بالشبهة في مجال الدعوة هو ما يمنع المدعوين من زؤية الداء والاحساس به ومن الاستجابة لما يدعو إليه الداعي . وتتمثل هذه الشبهة في الشك والارتياب في صدق الداعي . أو أحقية ما يدعو إليه أو في تأخير الاستجابة به . وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من الشبهات ، فأولها ما يتعلق بالداعي مثل الطعن في سلوكه وسيرته ورميه بالجهالة والضلالة وحب الذات والجاه وما إلى ذلك مما يكون سببا لتنفير الناس منه وعدم الثقة به . وثانيها ما يتعلق بموضوع الدعوة مثل اتهامها بالخروج على مألوفات الناس وتقاليدهم وبالابتداع فيما يدعو إليه وغيره من التهم التي يراد بها تنفير الناس مما يدعو إليه . وثالثها ما يتعلق بالمدعوين كإثارة مشاعر الناس ضد الدعاة لأن الاستجابة لهم تضر مصالحهم وتؤثر في حياتهم المتوارثة المطمئنة كما أن الاستجابة لدعوتهم تؤدي إلى ترك ما توارثوه من آبائهم . ويحب على الداعي أن يعلم جيدا أن إثارة الشبهات في وجه الدعوة إلى الله تعالى أمر قديم مضت به سنة الله في جميع الأزمة والأمكنة . فإذا فقه الداعي هذه الحقيقة من قصص الأنبياء والرسل وفهم مواقفهم أمام شبهات أهل الباطل وردهم عليها ، يعلم مدى ما يبلغ الضلال بالانسان بحيث يجعله يخاصم رسل الله الذين يريدون شفاءه من الأمراض وخلاصه من النيران وإدخاله في الجنات ، ويزول عنه العجب والحنق والغضب إذا اتهم بالتهم الباطلة أو أثيرت الشكوك حول دعوته أو شخصه لأنه ليس أحسن حالا من رسل الله ولا أفصح بيانا منهم ولا أكثر إخلاصا منهم ولا أكثر تأييدا من الله تعالى منهم .

ولكون هذه الشبهات تمنع عامة الناس من رؤية الحق والاحساس بالداء والحاجة إلى الدواء فلا بد للداعي أن يقوم بإزالتها وإظهار زيفها . وأن الأسلوب الجيد في مواجهة هذه المواقف هو الأسلوب الذي يعرفه الداعي من قصص الأنبياء وموقفهم من الشبهات التي أثارها المدعوون معهم وكان رسل الله يردون على هذه الشبهات والافتراءات بأسلوب عال رفيع واضح مع شفقة على أولئك المبطلين . وأن مهمة الداعي إزاء الأنواع الثلاثة المذكورة من الشبهات وإزالتها مهمة الطبيب العالم الناصح الشفيق لا تستفزه صيحات المرضى وكرههم رؤية الطبيب بل ولا يمنعهم شتمهم له ومحاولة الطعن في حقه ودوائه لأنه يعلم أن هذه الأمور منهم من بعض أعراض أمراضهم والطبيب إنما يريد علاجهم لا الانتقام منهم . ويجب أن يكون أسلوب الازالة بالحجة والبرهان . ولكن بصراحة ووضوح وحسن بيان مع أدب بالقول ورفق بالخطاب .

إن الدعاة إلى الله تعالى محتاجون أكثر من غيرهم إلى الابتعاد عن مواقع الشبهات حتى لا يتعلق المعاندون أو المعارضون بها ويتخذونها وسيلة لافتراءاهم وأكاذيبهم ضد الدعاة المخلصين . وكان رسل الله جميعا يقولون لأقوامهم ((لا نريد منكم على دعوتنا مالا ولا جاها ولا أجرا لأن أجرنا على الله وحده)) . وإن طلب الداعي مالا أو أجرا على دعوته لجعله أهل الباطل شبهة يثيرونها ليصدوا الناس عن الدعوة والدعاة فيقولون : إن هؤلاء موظفون مأجورون وطلاب المال يقومون بأعمال روتينية . والواقع أن الداعي يحتاج إلى الابتعاد عن كثير من المباح الذي قد يتشبث به أهل الدنيا ، حتى لا يكون ذلك وسيلة بيد أعداء الدعوة .

٣ – التربية مع التعليم :

المراد بالتربية مع العلم ، في مجال الدعوة الإسلامية ، عدم اكتفاء الداعي بتعليم المدعوين معاني الإسلام وأحكامه وتعريفهم بحدود الإسلام وأنظمته بل يجب عليه أن يتعهد المستجيب لدعوته بما يكفل له المناعة ضد الداء القديم ويثبته عليه ويحمله على العمل بما تعلم وصياغة سلوكه بموجبه وتطبيقه في الحياة

اليومية بحماس وإخلاص . وهكذا كان نهج إمام الدعاة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان الرجل منه إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ومن ثم وجب على الداعي الاهتمام بتربية المسلم على معاني الإسلام وصياغة سلوكه وفق هذه المعاني وأن حفظ المعاني فقط دون أن تمس هذه المعاني القلب ودون أن ينصبغ به السلوك لا يفيد في صلاح المسلم وتقويمه ومثله في ذلك كمثل مدرب الرياضة البدنية ، فإن من يحفظ مناهج الرياضة في تقوية الجسد . ويذكرها إذا سئل عنها أو يرددها بنفسه دون أن يطبقها فعلا على نفسه ، لا تكسب صحة جيدة ولا جسما قويا ولا يتحقق له الهدف المطلوب من تعلم هذه المناهج وكذلك من يتعلم بعض أحكام الإسلام ويفهم معانيها دون أن يربي نفسه عليها ويعمل بها بنية صادقة لا يجني الثمار المنشودة منها بل ربما يكون عرضة للانزلاق عند أول فتنة أو ابتلاء .

ولا يكفي للدعاة إلى الله تعالى أن يعلموا الناس أحكام الإسلام ويرددوا بعض المبادئ العامة المعروفة مثل : أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وأن تعاليمه تشمل جميع مرافق الحياة البشرية . فإن هذه القضايا العمومية لا تكفي بل لا بد من تعريف تفاصيل أحكام الإسلام بقدر المستطاع وتعليمها على بصيرة وفهم . وكانت الطريقة المحمدية في الدعوة متميزة بالتربية المباشرة وبفضل تلك التربية العميقة الدقيقة تمكنت العقيدة الإسلامية في قلوب الصحابة الكرام وامتلأت بحقائق الإسلام ومكنتهم تلك التربية من تحمل مالا يطيقه غيرهم من المحن في سبيل نصرة دين الله ونشره في العالم وكانوا طليعة الإسلام الأولى .

ومن الوسائل الموثرة للتربية الاتصال الدائم بالسيرة النبوية الكريمة وسيرة أصحابه صلى الله عليه وسلم . ثم يأخذ الداعي بيد المدعوين على النمط الذي سار عليه الرسول والصحابة في تعليم الناس وتربيتهم ومن الوسائل المؤثرة أيضا فتح منافذ قلوب المدعوين إلى الاستنارة بنور القرآن تلاوة وتأملا وفهما . لينساب هذا النور إلى كيان المسلم ويبعث فيه الحياة الحقيقية . فإن القرآن كما وصفه الله تعالى ، نور وهدى وشفاء وروح ، قال تعالى : ((وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)) . وفي مقدمة الوسائل المؤثرة لتربية القلوب على معان الإسلام صياغة سلوك الأفراد والجماعات وفق تلك المعاني تذكير المؤمن بحقيقة الحياة الدنيا والغاية القصوى من هذه الحياة ، ألا وهي العبادة لله عز وجل ونيل رضاه والتنعم بسعادة الحياة الآخرة التي هي خير وأبقى . وإذا استقرت هذه العقيدة في قلب المؤمن يسارع إلى التزود بزاد التقوى ويتخذ الدنيا مزرعة للآخرة . وأن الغاية لا تتحقق بالأماني الفارغة بالكسل والقعود . فلا بد من قيام الداعي بشد المدعوين إلى هذه الغاية العليا على أن يكون القدوة المباشرة في كل ما يدعو الناس إليه ظاهرا وباطنا سرا وعلنا .

٤ – الترغيب والترهيب :

إن أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم تدل عليها الآيات القرآنية والسيرة النبوية دلالة قاطعة . وهذا الأسلوب هو نهج رسل الله الكرام في جميع الأزمنة والأمكنة والمقصود بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه وأما المقصود بالترهيب فكل ما يحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله .

وأن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها . والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضي الله سبحانه وتعالى ورحمته وجزيل ثوابه في الدار الآخرة وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله عز وجلوعذابه في الآخرة . ومن الآيات القرآنية في هذا الأسلوب قوله تعالى عن نوح عليه السلام : ((إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون)) { سورة نوح ١ – ٣ } .

وقال تعالى عن خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)) { سورة محمد – ١٢ } . وكان صلى الله عليه وسلم يعد المبايعين له بالجنة ، من ذلك قوله لأصحاب بيعة العقبة الأولى : " فإن وفيتم فلكم الجنة " . وكان صلى الله عليه وسلم يمر بآل ياسر وهم يعذبون بسبب إسلامهم فيقول لهم : " صبرا آل ياسر موعدكم الجنة " .

ومن أساليب الترغيب والترهيب أيضا تذكير الناس بما يتحقق لهم في الدنيا من خير وطمأنينة وأمان في حالة استجابتهم لأوامر الله تعالى وبما يصيبهم من شر وفساد ومتاعب في حالة رفضهم وكذلك تذكيرهم بماهم عليه من نعم يدعوهم لطاعة الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم والتحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا بالله الخالق العظيم ، وغالبا يتبع زوال النعمة نزول النقمة .

ومن لوازم أسلوب الترغيب والترهيب اتباع طريقة التدرج والموازنة بين الأمور فلا بد للداعي من بيان حقيقة الحياة الدنيا وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى الآخرة وبقائها ونعيمها . ولا يدعو الناس لترك الدنيا والفرار منها لأن الإنسان يعيش في الدنيا ويتخذ منها مزرعة للآخرة وله حق الأخذ بنصيبها والتنعم بطيبات ما خلق الله تعالى فيها ، ولكن عليه أن يحذره من مغبة التعرض لاغراءات الدنيا والركون إليها ونسيان الآخرة .

وفي الآية القرآنية التالية بيان واضح لحقيقة الدنيا وقدرها وتحذير من التعلق بها وإيثارها على الآخرة وقال تعالى : ((اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما

الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)) { سورة الحديد – ٢٠ } ، وعلى الداعي أن يختار من أساليب الترغيب والترهيب ما يناسب كل مقام بفطنته وفراسته لأن لكل مقام مقالا !

الركن الخامس : وسائل الدعوة

إن المقصود بالوسائل في مجال الدعوة هو ما يستعين به الداعي على تحقيق مهمة الدعوة وتبليغها إلى الناس بصورة مثمرة وناجحة . وهذه الوسائل تنقسم في الواقع العملي إلى قسمين : قسم يتعلق بتهيئة الجو المناسب والظروف الملائمة التي تساعد على القيام بالدعوة بيسر ونجاح ويمكن أن يسمى هذا النوع من الوسائل بالوسائل المساعدة . وقسم آخر يتعلق بمهمة تبليغ الدعوة بصورة مباشرة ويمكن أن يسمى هذا النوع من الوسائل بالوسائل المباشرة .

وأن الوسائل المساعدة : لهي بمثابة تهيئة المجال لبدء الدعوة وإزالة العراقيل من طريق إيصالها إلى المدعوين . وفيها يلي بعض هذه الوسائل المساعدة على أساس النظرة الصحيحة لواقع الحياة ووفق قانون الأسباب والمسببات :

أولا : اليقظة والحذر :

اليقظة والحذر من صفات المؤمنين الذين يفهمون لسنن الله في الكون . والمطلوب من المؤمن العاقل أن يبتعد دائما عن الطيش والغفلة وقصر النظر . وأن الفرق بين العاقل والجاهل ، أن الأول يعرف الخطر قبل وقوعه فيأخذ الحيطة والحذر قبل وقوع المكروه وأما الثاني فلا يحس به إلا بعد وقوع المكروه. وأن الأرشادات القرآنية والسنة والنبوية صريحة وقاطعة على وجوب أخذ الحذر والحيطة في شئون المؤمن كلها . وقال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا)) {سورة النساء – ٧١ } ، وفي هذه الآية وغيرها من الآيات المماثلة في سورة النساء ، دليل ساطع على ضرورة اتخاذ كل ما ينجى المسلمين من كيد الأعداء وعلى ضرورة كونهم متيقظين في كل الأحوال ويتحسسوا ما عند الأعداء من الخطط والمكائد ويعلموا كيف يردون عليها بحكمة ويقظة .

وفي السيرة النبوية شواهد كثيرة على لزوم الحذر لكل مسلم من مكائد الأعداء ولا سيما للداعي الذي يتعرض للعداء والمعارضة من شتى الجهات المناهضة لدعوة الحق . ومن هذه الشواهد التي

يجب على كل داعية أن يضعها نصب عينيه دائما : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كانوا في مكة قبل الهجرة ذهبوا للصلاة إلى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم خوفا للفتنة ومنها أيضا وسائل الحيطة والحذر التي اتخذها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في واقعة الهجرة وذهابه إلى غار بجبل ثور وأمره لعلى ابن أبي طالب رضي الله عنه للنوم على فراشه ليلة الهجرة وتغيير خط السير المعتاد إلى المدينة وما إلى ذلك من وسائل الحذر والحيطة من أجل إنجاح دعوته وتبليغها إلى الناس .

وأن الأخذ بأسباب الحذر واليقظة لا يعنى مطلقا عدم الثقة بالله ولا ينافي التوكل عليه لأن المسلم يباشر الأسباب لأن الله تعالى أمر بها ودعا إليها ولكن قلبه معتمد على الله وحده ويعتقد أن الأسباب والمسببات بيد الله فهو الذي يهيئ السبب وهو الذي يوفق إليه ويجعله ناجحا . وأن إمام الدعاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سيد المتوكلين فقد باشر وسيلة الحذر في هجرته بل في شئونه كلها وأمر بها أصحابه وأن الدعاة يحتاجون إلى الحذر والحيطة في كل العصور والبيئات وخاصة لو كانوا في مثل المجتمعات المنتشرة في هذا العصر في شتى البلدان في أفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا . وأن ترك الحذر يفوت على الدعاة العاملين في هذه المجتمعات فرص انتشار الدعوة الإسلامية وحرية حركات الدعاة وتنقلاتهم في سبيل الدعوة . وقد يفضى ترك الحذر إلى إلقاء النفس بالتهلكة وهو أمر لا يجوز في نظر الإسلام مع إمكان الاحتراز والأخذ بأسباب اليقظة والحذر كما أمرنا القرآن وأرشدنا إليه إمام الدعاة وسيد المرسلين .

وثانيا : الاستعانة بأهل الكفاءات والخبرات :

يجب على الداعي أن يستعين بأهل الخبرات والتجارب والكفاءات في الأمور التي لها علاقة بالدعوة وإبلاغها وهذه متروكة لتقدير الداعي الواعي وفطنته ومدى الحاجة . ومن وسائل الاستعانة طلب مساعدة مصاحبة شخص له قدره خاصة أو تجربة في مجال الدعوة كما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يساعده بأخيه هارون في مهمة تبليغ الدعوة المكلف بها . وقال تعالى عن موسى عليه السلام : ((واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا)) { سورة طه : ٢٩ – ٣٥ } ، والداعي المسلم يجب أن يستعين في مجال الدعوة بمن له قدرة وكفاءة في أمرها وأن إخلاصه للدعوة قد يكون سببا لافساح المجال لزميل كفء أمين أقدر فيكون ذلك الإقدام منه إسهاما قويا في مجال الدعوة إلى الله تعالى ومثابا عليه .

ومن المسائل التي كانت – ولا تزال – مثار الخلاف بين العلماء موضوع جواز الاستعانة بغير المسلم في بعض أمور الدعوة أو طلب حمايته من الذين يريدون منعه من تبليغ الدعوة وطلب معاونته لتمكينه من القيام بالدعوة في أمان وسهولة . وإذا تتبعنا سيرة إمام الدعاة وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نرى أن استعانة الداعي بغير المسلم جائز بل ولازم في بعض الظروف لحماية الدعوة والدعاة ونشرها بين الناس .

وكان أبو طالب الذي كان على دين قومه ومات على حاله ، حريصا على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن يريد إيذاءه أو منعه من تبليغ الإسلام . ولما مات أبو طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " . { ابن هشام ج ٢ ص – ٢٣٦ } . وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم العام الذي مات فيه كل من أبي طالب وخديجة رضي الله عنها عام الحزن . ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف وانتهى إلى حراء بعث رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه فأجاره { امتاع الإسماع للمقريزي ص – ٢٨ } . وعندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه " {ابن هشام ج ١ ص – ٣٤٣ } . وفي بيعة العقبة الكبرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه .

ويشترط لهذه الاستعانة أولا التوثق بأمانة الشخص وصدق معاملته وعدم خيانته للداعي المسلم . وثانيا أن لا تكون تلك الاستعانة على حساب تعاليم الإسلام أو التنازل عن شيء من مبادئه . والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمه أبي طالب بكل صراحة ووضوح : " يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا العمل ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه " وإنما الغرض الأول من الاستعانة بغير المسلم في مجال الدعوة هو الخلاص من إيذاء أعداء هذه الدعوة وبطشهم لأن بقاء الداعي حيا يعطيه فرصا في المستقبل للقيام بمهمة الدعوة وأما إلقاء نفسه للتهلكة فما هو إلا هدم لبنة من بناء الدعوة الحصين ، وينبغي كذلك الاستعانة بلك الوسائل المسموح بها لإيجاد جو هادئ خال من المضايقات والعقبات في طريق الدعوة .

وثالثا : تنظيم الأوقات والجهود :

إن الإسلام هو دين النظام وهو يوجب على أتباعه اتباع النظام في كل مرفق من مرافق الحياة فالصلاة تؤدي بنظام من جهة الوقت وأداء أركانها ومتابعة المأموم للإمام وكذلك في العبادات الأخرى من الزكاة والصوم والحج . والداعي يحتاج إلى تنظيم وقته فإن الوقت هو الحياة وهو رأس ماله . ويحتاج أيضا إلى تنظيم الجهود وتوجيهها بطريقة منظمة ومنسقة . وعدم التنظيم يبعثر الجهود ويضيع الأوقات النفيسة فيما لا فائدة فيه مع أن واجبات المسلم الواعي أكثر من الأوقات وعليه أن يبادر إلى استغلال كل دقيقة من وقته قبل فوات الأوان .

ولا بد أن يكون حساب الداعي أن يكون يومه خيرا من أمسه وغده خيرا من اليوم الحاضر متأسيا بإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم " من استوى يوماه فهو مغبون " . وإن قليلا من العمل بنظام ودوام خير من الكثير مع الفوضى والانقطاع . وعلى هذا ، فإذا كانت الدعوة تجري بطريقة جماعية ومنظمة في

المجتمعات الوثنية الكبيرة في بعض البلدان في آسيا وأفريقيا بتشكيل جماعات متخصصة في مجال الدعوة فتكون النتائج أسرع وأوسع من الجهود الفردية المبعثرة .

وأن العمل في مجال الدعوة بشكل جماعي يتطلب من الدعاة المنتظمين في هذا السلك الجماعي أن يكونوا على قدر كبير من الفهم الدقيق للروح الجماعي والصبر الجميل وضبط النفس ونكران الذات والايثار وقبول الرأي المخالف لرأيه بروح السماحة ورضى النفس. ولا ينبغي له أن يعتبر النظام أو قبول رأي الجماعة أو رئيسها تقييدا على حريته أو نوعا من التعسف بل عليه أن يعتبر ذلك متابعة لأمر الله وإطاعة له كمتابعة المأموم للإمام في الصلاة وله عليه الأجر والثواب .

وإذا أدرك مسلم حسن النية والقصد بثاقب فكره وتجاربه أنه لا يصلح للعمل في مجموعه بدون اخلال النظام الجماعي والالتزام بمقتضيات الطاعة للجماعة وأميرها فالأحسن له العمل منفردا في مجاله وحدود طاقاته تفاديا لوقوع الاضطراب في صف الجماعة واختلاله وتفرق الآراء في أفرادها ، ومثله قد ينفع للدعوة منفردا أكثر منه في سلك الجماعة ، ولا حرج في ذلك لأن طبائع الناس تختلف والظروف والبيئات لها حكمها ومقتضاها فليس كل شخص يصلح للعمل الجماعي لأنه ليس كل فرد فيه المعاني اللازمة لهذا العمل فقد يكون صالحا في نفسه ولكن استعدادته الذاتية والبيئية لا ترقي إلى درجة الانسجام مع النظام الجماعي والطاعة لحكم الجماعة في مجال العمل . والله ولى التوفيق .

ورابعا : الثقافة العالية الواسعة :

يجب أن يكون الداعية الإسلامي ذا ثقافة عالية واطلاع واسع فيسهل عليه توجيه أنظار الناس إليه ، ومخاطبة المثقفين من جميع قطاعات المجتمع . ويستطيع كذلك دعم آراءه وأقواله بحجج واضحة قوية وتوجيه أفكاره ودعوته إلى الجمهور بثقة في نفسه وإرادة قوية في مهمته . وإذا كان الداعي قليل الثقافة وسطحى الوعى سرعان ما ينكشف الناس عنه ويتراجعون عن دعوته وينفضون عنه وعن دعوته وينبغي أن يدرك الداعي أن تعميق حركة الدعوة في قلوب الجمهور يكمن في تقريبهم إليه وصرف تطلعهاتهم نحو هذه الحركة .

وأن الداعي المثقف الواعي يدرس المستوى الثقافي والفكري لكل طبقة من المجتمع الذي يعمل في وسطه ويضع برنامجا متقنا مدروسا يناسب عقول أفراد وجماعات تلك الطبقة ويلبي حاجاتهم الاساسية النابعة من واقع حياتهم. ويراعي في ذلك البرنامج الأولوية والترتيب . ولا بد أن يكون منهجه متنوعا ومتكاملا بحيث يشمل مختلف طبقات المجتمع الذي اتخذه ميدانا لعمله الشاق ولكنه مفيد ، لأنه يجالس ويحادث الأدباء والعلماء والساسة والاقتصادين والعقلاء والبسطاء فيجب أن يكون منفتحا فكريا وحركيا واسع الادراك ولا يكن انغلاقيا وضيق الأفق .

ويمكن للداعي المسلم أن يستوعب ثقافته العالية الشاملة بالقرآءة الواسعة على مستوى عال فيقرأ الأفكار والآراء المختلفة ولا ينبغي له أن يستكبر أو أن يستنكف من قرأءة أفكار المخالفين أو الأعداء بل لا بد أن يمر على جميع الأفكار . وأن انغلاقية الداعي تجعله يبدو غريبا في وسط المجتمع المثقف بثقافة عالية شاملة . وإذا بقي الداعي مع أفكاره المحدودة ومعلوماته القليلة التي التقطها من بعض صفحات الكتب المقررة في المدارس والمعاهد واكتفى بحفظ بعض النصوص المتداولة في كل المناسبات يعيش مع نفسه فقط ويدور في حلقة مفرغة . ويمكن للداعي الواعي أن يستقي ثقافته ومعلوماته الواسعة المتنوعة من الذين يجالسهم ويحادثهم فإن الكثيرين منهم يحملون أفكارا واسعة ومعلومات مفيدة فعليه أن يستقي العلم والخبرة من كل شخص يجالسه ويناقشه فينفتح فكره تدريجيا والمهم أن يكون الداعي واعيا تاما واسع الأفق والاطلاع قادرا على الكلام في المجالس وتوجيه أنظار الناس إليه وصاحب الحجة الوضحة .

وخامسا : الحركة السريعة :

يجب أن يعلم الدعاة أن الناس لا يأتون إليهم وأن منهج رسل الله جميعا في إبلاغ الدعوة هو الذهاب إلى الناس ليدق أبوابهم ويوقظهم من سباتهم العميق الذي ظلوا فيه نائمين . والمثل الأعلى في هذه الوسيلة المنهج المحمدي لخاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم فإنه لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم ويغبر قدميه الشريفتين في التردد على أسواق العرب الموسمية وأماكن تجمعاتهم في سبيل إيصال كلمة الحق وإبلاغ دعوة الله .

وكان رسل الله الكرام في جميع الأزمنة والأمكنة يبلغون الدعوة إلى الناس بالحركة المستمرة والتشمير الدائم وليس بالجلوس في البيوت أو في المساجد أو في الزوايا . وانتشرت الدعوة الإسلامية في أرجاء الدنيا بالتحرك المتواصل حتى رويت الأرض بقطرات عرق جبينهم ورويت القلوب المتعطشة بدعوتهم المباركة. وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم المثل الأعلى للداعي المسلم في سبيل إيصال كلمة الحق وبذل الجهد قدر المستطاع دون توفير وقت أو خوف على متع الدنيا وزخارفها فيجب على كل داعية مؤمن أن يتحرك بسرعة ويوسع دائرة تحركه شيئا فشيئا ويساهم في وضع لبنة في بناء الإسلام ولو بكلمة واحدة حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " بلغوا عنى ولو آية " . وأن البطئ مسبوق والزمن لا يرحم لأنه سريع الحركة .

وأما الوسائل المباشرة للدعوة فهي : والوسائل التي تتعلق بمهمة تبليغ الدعوة بصورة مباشرة . ويمكن أن تسمى أيضا بوسائل تبليغ الدعوة . وتنقسم هذه الوسائل إلى ثلاثة أقسام حسب المنهج المثالي والفطري لنشر أي مبدأ أو فكر بين البشر . وهي : القول والعمل والقدوة الشخصية .

١ – التبليغ بالقول :

أما التبليغ بالقول فيشمل جميع أنواع التبليغ بالكلمة المسموعة مثل الخطبة والمحاضرة والدرس والحديث والمناقشة أو المقروءة كالكتابة والتأليف والترجمة وما إلى ذلك . وأن القول هو الأصل في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى فالقرآن هو قول رب العالمين نزل به الروح الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون به تبليغ رسالة الله عز وجل للناس . وأمر الله تعالى جميع رسله بتبليغ أقوامهم رسالات ربهم بالقول المبين ، وأمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم " .

وتتضح من الآية الكريمة التالية أهمية تبليغ الدعوة بالقول المبين وأثر الكلمة الطيبة في النفوس . ولهذا أرسل الله رسله بألسنة أقوامهم حتى يفهموا ما يدعونهم إليه . قال تعالى : ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)) . وجعل الله تعالى وظيفة الرسل الكرام التبليغ المبين الواضح لتقوم الحجة على المخاطبين . فالقول إذن هو الوسيلة الأصلية في تبليغ الدعوة .

وأما الخطبة فهي في مقدمة وسائل تبليغ الدعوة ويشترط للخطبة الناجحة أن تكون لدى الداعي فكرة أو أفكار معينة يريد بيانها ودعوة الناس إليها . ومن الأمور المطلوبة للخطبة الناجحة في مجال الدعوة أن تكون الفكرة التي يتناولها في خطبته مما له علاقة في أحوال الحاضرين الذين يريد لفت أنظارهم إليها ، وأن يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتطبيقات العملية لها من قبل الرسول الكريم والصحابة الكرام ، ولا بأس من تصوير المعاني بشكل قصص وضرب الأمثال . وأحسن مثل في هذا المضمار أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه كما جاء في حديث بيان فضل الصلاة إذ قال : " أرأيتم لو أن في باب أحدكم نهرا يغتسل فيه اليوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال كذلك الصلاة " .

ويجب أن تكون الخطبة واضحة وفي مستوى فهم السامعين بدون تطويل ممل أو اختصار مخل . ولا يسرع في كلامه ولا يرفع صوته بدون حاجة ولا يذكر الداعي في خطبته الآيات أو الأحاديث التي يصعب فهمها على الحاضرين دون شرحها وبيانها جيدا لئلا تحدث بلبلة الأفكار وحيرة النفوس ، وكذلك عليه أن يحذر من الخوض في المسائل الخلافية الفروعية التي لا تمت إلى أصول العقيدة الإسلامية أو العبادات المعروفة بالضرورة في الإسلام .

وأن المحاضرة تختلف عن الخطبة في نقطتين هامتين فالغالب في المحاضرة أنها تعالج موضوعا معينا بإحاطة واستقصاء وذكر الأدلة والبراهين . وعلى المحاضر أن يقيم المقدمات لما يريد الوصول إليه على مسائل واضحة جلية مشهورة . وكذلك لا يكثر من العبارات العاطفية ولا يستخدم الحركات المثيرة للأحاسيس لأن مجالها الأصلي الخطيبة .

وإذا أراد المحاضر أن يعرض بعض الحقائق الدينية وأصول العقيدة الإسلامية مثل البعث بعد الموت فيكفيه أن يلفت الأنظار إلى ما نشاهده من موت وبعث في عالم الحيوان والنبات وأن يضرب الأمثلة على ذلك لتقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان . وهذا هو الأقرب للنهج القرأني في إثبات الحياة بعد الموت وقال تعالى : ((ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها المحي الموتى إنه على كل شيء قدير)) فإن الله الذي أحيا هذه الأرض هو الذي يحيي الموتى بعد أن خلقهم من ماء مهين من نطفة نعرفها ونراها . والحياة بعد الموت أثر مشاهد محسوس ، أرض ميتة لا نبت فيها ولا حياة ينزل الله عليها المطر فتهج ويخرج منها نبات حي بألوانه المختلفة وطعومه المتنوعة ، وأن الإعادة كما هو معلوم أسهل من الابتداء . وقال تعلى : ((أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق)) . وعلى المحاضر أن يفسر الآيات حتى يفهمها السامعون الفهم الصحيح .

وأما تبليغ الدعوة بالدرس فيكون ببيان مسألة أو مسائل إسلامية في ضوء القرآن والسنة النبوية وسيرة السلف الصالح . وأن الغالب في الدرس أن يحضره عدد قليل من الناس فهو يعطي للداعي فرصة طيبة لأن يتعرف عليهم ويوثق علاقته بهم . ويستحسن له في درسه أن يحضر مادته مسبقا وأن لا يستطرد كثيرا أثناء إلقاء الدرس لأن الاستطراد يبعد السامع عن أصل الموضوع ويبعث في نفسه الملل. وعلى الداعي أن يتأنى في الكلام فلا يسرع بل يتمهل حتى يستوعب السامعون كلامه ويفهموه . وعليه أن يتجنب بقدر المستطاع ذكر الخلافات الفقهية والمذهبية ، عند كلامه في الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية لأن ذكر هذا الخلاف يشتت أذهان السامعين . ويبين الحكم الفقهي الراجح من بين الأقوال الفقهية أو أحد المذهب الفقهية عند ضرور ذكر حكم مسألة يتعرض لها في درسه بهدوء وحكمة .

ومن وسائل تبليغ الدعوة أيضا الحديث مع الناس عن شئون الدين وإرشادهم إلى طريق الخير وتحذيرهم عن طريق الشر . وفي مقدمة هذه الوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو غالبا ما يكون بالحديث المباشر مع الأفراد والجماعات . ويشترط فيمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقول أن يكون عالما بالمعروف الذي يدعو إليه والمنكر الذي ينهى عنه . وهذا واضح جدا من تجارب الحياة فإن من يعالج المريض يحتاج إلى فهم المرض والدواء أي يكون طبيبا جيدا وخبيرا . ويستفاد ذلك من قوله تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) .

ويشترط فيه – ثانيا – أن يكون ملتزما باللين والرفق في الكلام وحسن المعاملة والتصرف . وأن القول اللين من القواعد الأساسية التي أرشد الله سبحانه وتعالى رسله لاتباعها في أداء وظيفة تبليغ الدعوة. وقال تعالى مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام : ((اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)) { سورة طه : ٢٤ } . ولا يجوز للداعي المسلم أن يخرج عن هذا النهج اللين في الحديث مع الناس عند أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وعليه دائما أن يحمل نفسه على هذا النهج لأنه

السبيل القويم الذي دلت عليه الآيات القرآنية والسيرة النبوية . وجاء في السنة النبوية :" ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه " .

وأن من أدوات تبليغ الدعوة بالقول المناقشة والمجادلة كما أشار إليه قوله تعالى : ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) . وتكون المناقشة والمجادلة بين شخصين أو بين فريقين يعرض كل جانب وجهة نظره فيما يراه ويعتقده من أمور . ويجب أن يكون كلام الداعي في المناقشة والمجادلة بالحسنى وبالكلام الطيب وحسن الأدء والهدوء التام وعدم إغاظة المخاطب والاستهزاء به مع الاحتفاظ بقوة الاقناع ووضوح الحق . وهذا هو الذي يستفاد من الآية القرآنية المذكرورة .

ومهما وصل جدال المدعوين إلى حد العناد واتهام الداعي المخلص بالضلال أو الطمع والجشع في السلطة أو التعاظم فلا ينبغي للداعي أن يخرج عن هدوئه واتزانه ومستواه العالي الرفيع في الكلام والمعاملة واختيار الألفاظ الرقيق المحبوبة في جوابه . وقد ذكر القرآن بعض صور المناقشات التي جرت بين الرسل وبين أقوامهم في مجال تبليغ الدعوة . ومن ذلك قوله تعالى في شأن نوح عليه السلام وقومه : ((لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول الله من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا لعلكم ترحمون)) .

وإذا أصر المدعوون على الباطل وأصبح الكلام معهم عبثا ، لأن بعض الناس لا ينفع معهم الجدل والنقاش لأنهم لا يريدون من جدلهم الوصول إلى الحق وإنما يريدون العناد والمكابرة والجحود ، ففي هذه الحالة ينبغي للداعي قطع المناقشة والمجادلة معهم بطريقة حكيمة ، وسديدة . ويتبع في هذا المسلك النهج المحمدي الذي يشير إليه ، قوله تعالى : ((قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)) .

وأما تبليغ الدعوة بالكتابة فتتم بثلاث وسائل معروفة ، في عالمنا الحاضر فهي التأليف ونشر المقالات والبحوث في الصحف والمجلات وغيرها وكذلك كتابة الرسائل إلى الأفراد أو الجماعات التي يريد الداعي دعوتهم إلى الإسلام . وتأليف الكتب في معاني الإسلام ونشرها بين الناس من الوسائل المفيدة جدا في الدعوة إلى الله وكذلك كتابة المقالات والأبحاث في الصحف والمجالات فيمكن بهذه الوسيلة تبليغ دعوة الإسلام إلى ملايين القراء فيجب على الداعي مراعاة الكتابة في أسلوب جيد مفهوم واضح يدركه أقل الناس قدرة على الفهم والإدراك .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الرسائل إلى الحكام والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك حينئذ خاتما من فضة يختم به رسائله الموجهة إلى ملوك ورؤساء الدول والقبائل وكان نقشه " محمد رسول الله " . ومن هذه الرسائل الكتاب الذي أرسله إلى قيصر الروم وكتبه إلى النجاشي وكسرى والمقوقس وغيرهم . وبوسيلة الكتابة يستطيع الداعي محاربة التيارات المضادة للإسلام والرد على الأكاذيب والأضاليل والشبهات المغرضة التي تثيرها الجهات الجاهلة أو المضللة الحاقدة حول دعوة الإسلام ومبادئها وقوانينها .

ومن الوسائل الكتابية ترجمة معاني القرآن والأحاديث النبوية والكتب والبحوث المفيدة إلى اللغات الأخرى وإرسالها للناس في سائر البلاد في قارات الدنيا لتبليغ الدعوة إليهم ولتعميم الفائدة على اختلاف لغاتهم ومستوياتهم الثقافية والعلمية .

وفي مقدمة وسيلة تبليغ الدعوة بالكلمة أيضا في عصرنا الحاضر الإذاعة والتلفاز { الراديو والتلفزيون } ولها دور فعال في نشر كلمة الحق بين المستمعين والمشاهدين . ومن هنا فإن الواجب على الدعاة أن يستفيدوا من هذه الوسيلة الإعلامية الحية المؤثرة بحكمة ووعي وتقدير لظروف كل بلد من أجل تبليغ دعوة الإسلام عبر موجات الأثير .

٢ – التبليغ بالعمل :

المراد بالعمل هنا جميع الأفعال والمشروعات والخطط العملية التي تهدف إلى نشر دعوة الإسلام وتعليم القرآن والسنة والعلوم الشرعية من الفقه والتوحيد وغيرهما ونشر الوعي الإسلامي بين الناس وتهيئة الظروف لأبناء المسلمين لتعلم العلوم الإسلامية واللغة العربية . ومن هذه الأعمال بناء المساجد أو المدارس والمعاهد التي تساعد على نشر العلم وكلمة الحق بين الناس . ومنها أيضا القيام بجهود شخصية لأجل تدعيم مراكز الدعوة من مساعدة مالية أو جمع التبرعات والسعي وبذل الوقت في سبيل بنائها وحث الناس على المساهمة فيها . ويكون هنا العمل وسيلة فعالة وثابتة لتبليغ الدعوة .

ومن وسيلة التبليغ العملي أيضا إزالة المنكر وإثبات المعروف بالفعل . والأصل فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " . ولا بد في إزالة المنكر بالفعل من فقه وعلم بما يراد إزالته وكذلك الرفق في إزالته ويجب أن يكون المقصود إزالة المنكر فعلا وليس المقصود إهانة مرتكبيه أو الانتقام منهم . وتجب كذلك ملاحظة المصالح والمفاسد المترتبة على هذا العمل قبل الإقدام عليه . وأن الدعاة ليجدون مثلا حيا ومنهاجا مبينا في هذا المضمار من السيرة المحمدية فقد روى البخاري : أن أعرابيا بال في المسجد النبوي فقام الناس ليقعوا فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم " دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ،

فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين " . فما أبلغ هذا المنهج النبوي الحكيم في تبليغ دعوة الإسلام إلى قلوب الناس !؟ وتقريب أهدافها إلى الأذهان !؟ وتثبيت محاسن تعاليم الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين !؟ .

ومن الشروط الأساسية لإزالة المنكر فعلا أن تكون عند المزيل الاستطاعة الكافية على هذه الإزالة . وأن إمكانيات الدعاة تتفاوت في هذه الاستطاعة فإن الحاكم عنده القدرة على إزالة المنكرات المتفشية في دائر سلطته أكثر من غيره . وكذلك لرب الأسرة القدرة على إزالة المنكر في بيته لأن له الولاية على أفراد أسرته . فإذا عدم الداعي القدرة على إزالة المنكر فعلا أو خاف ترتب منكر أكبر على ذلك الفعل أو حدوث ضرر جسيم ، مثل تعطل عمله المستمر في مجال الدعوة أو تزاحم المفاسد أكثر من المصالح بسبب هذا الإقدام فعليه الانتقال إلى التغيير بالقلب كما جاء في الحديث الشريف الذي ذكر مراتب تغيير المنكر باليد واللسان والقلب فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها . ومتى كانت كراهية القلب للمنكر كاملة وإرادته للتغيير كاملة وأن عدم الاقدام عليه لعجزه فإنه يعطى ثوhب الفاعل القادر ، لأن الفعل يكون بحسب القوة والقدوة واعتبار المصلحة العامة في المدى البعيد . ولا يجوز للداعي المسلم التغاضى عن المحاذير المترتبة على الإقدام على مقاومة جزئيات المنكر بحيث تؤدي إلى تعطيل مصالح أكبر وتضييع فرص أهم في مجال عمله المبرور في الدعوة إلى الله .

٣ – التبليغ بالقدوة الشخصية :

إن السيرة الطيبة للداعي وصفاته العالية وأخلاقه الفاضلة وأفعاله الحميدة تجعله قدوة حسنة وأسوة مثالية لغيره . لأن التأثر بالأفعال والسلوك الشخصي أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام فقط . والدعوة الإسلامية في حقيقتها تربية . والتربية تحتاج إلى القدوة الشخصية . والذي قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد وعظ وإرشاد وإنما كان في الحقيقة تربية . وأن تبليغ الدعوة بالقول الحكيم والموعظة الحسنة مطلوب كإحدى الوسائل الهامة كما جاء في كتاب الله المنزل : ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)) . ولكن جاءت فيه إرشادات أخرى عديدة في مجال التبليغ بالسيرة الحسنة ومنها قوله تعالى : ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) وقوله تعالى : ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ويبلغهم رسالة ربه ويربيهم بسلوكه الشخصي بالقدوة، يربيهم كيف يحققون في عالم الواقع أوامر الله تعالى وكيف تكون العبادة خالصة لله . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : " كان خلقه القرآن " . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشرب في قلبه كل معاني القرآن وتخلق بها وتطبع حتى صارالقرآن هو خلقه وصار خلقه هو القرآن ثم دعا الناس وهو على هذه الصورة أي صورة حية محسوسة لتعاليم كتاب الله . وكان بها كالكتاب المفتوح الذي يقرأ فيه الناس معانيه فيقبلون عليها وينجذبون إليها .

إن القدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها المدعوون على أحقية الإسلام ، لا سيما إذا كان سليم الفطرة وسليم العقل وأن الإسلام قد انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالسيرة الطيبة للدعاة المسلمين . وفي مقدمة أصول السيرة الحسنة حسن الخلق وموافقة العمل للقول . ومن الأخلاق الحسنة التي يجب أن يتحلى بها الداعي الصبر والحلم والعفو . وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسله الكرام الذين هم أئمة الدعاة بهذين الخلقين مقرونا بتبليغ الدعوة . وقال تعالى : ((فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)) وقال أيضا : ((يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)) . وهذا يدل على أهمية الصبر ولزومه للداعي. وأن الداعي بسماحته وعفوه وصبره على أذى الجاهلين والمعارضين وإعراضه عنهم ، يفتح قلوبهم للتفكر في أحقية دعوته وجديتها وتحملهم هذه الصفات العالية على التوجه إلى ما يدعو إليه وقبوله ولو بعد حين.

وليتق الداعي ربه في هذا الأمر الخطير فلا يكون منفرا عن الإسلام بسيرته وهو يريد الدعوة إليه بقوله . وأن موافقة عمل الداعي بقوله لهي المعيار الذي يزن به المدعوون من عامة الناس مدى جدية دعوته ومقدار إخلاصه فيها فليحذر الداعي من مخالفة أفعاله لأقواله فإن النفس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا يوافق فعله قوله . ولهذا حذرنا الله تعالى من مخالفة أفعالنا لأقوالنا فقال : ((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تعلمون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)) .

الركن السادس : معرفة أنواع المدعوين

المدعو المقصود في اصطلاح الدعوة الإسلامية هو الإنسان المخاطب بدعوة الإسلام أي الإنسان البالغ العاقل ذكر أو أنثى مهما كان جنسه ونوعه ولونه وبلده ومهنته ، لأن الإسلام رسالة الله الخالدة إلى الناس أجمعين ولهذا يخاطب القرآن البشر جميعا فقال تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم)) وقال بشأن عمومية البعثة المحمدية : ((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)) وقال : ((وما أرسلناك إلا كافة للناس وبشيرا ونذيرا)) .

وإذا عرفنا أن دعوة الإسلام عامة لجميع البشر فعلى الداعي أن يحرص على إيصالها لكل إنسان يستطيع الوصول إليه . وعليه أن يذهب إلى المدعو ويتصل به ليبلغه الدعوة ويدعوه إليها . ولا ينبغي له انتظار مجئ الناس إليه وهكذا كان يفعل إمام الدعاة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والرسول عليهم السلام في جميع الازمنة والأمكنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي مجالس قريش ويدعوهم ويخرج إلى القبائل في منازلها ويدعوهم إلى الله ويذهب إلى ملاقاة من يقدم إلى مكة في المواسم

الخاصة فيدعوهم . وجاء في سيرة ابن هشام : " وكان صلى الله عليه وسلم لا يسمع بقادم إلى مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده)) { ج ٢ ص – ٣٢ }.

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومن كان يأتيها وإنما ذهب إلى خارجها ، ذهب إلى الطائف يدعو أهلها . وكان يدعو كل إنسان يلقاه أو يذهب إليه . ولا يجوز للداعي أن لا يستهين بأي إنسان وأن لا يستصغر شأنه ، لأن الذي لا يقيم له وزنا في أول الأمر ربما يكون له في المستقبل وزن كبر في مجال خدمة الإسلام والدعوة إليه . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو كل إنسان ولم يستصغر شأن أحد . وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عرض نفسه على قبائل العرب التي وافت الموسم في مكة ، وكان ذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، ولم يستجب له منهم أحد ، لقي ستة نفر من الخزرج عند العقبة من منى وهو يحلقون رؤوسهم ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم بعض الآيات القرآنية فاستجابوا لله ورسوله وآمنوا ثم رجعوا إلى قومهم بالمدينة وذكروا لهم نبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام فانتشر فيهم خبره حتى لم يبق دار من دور الأنصار في المدينة إلا فيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته .

وجدير بالاعتبار أن النبي صلى الله عليه وسمل لم يستصغر شأن أولئك الستة وهم يحلقون رؤوسهم في مكان بعيد في منطقة منى بقرب مكة . ولم يقل في نفسه الكريمة : أي أمل في هؤلاء الستة الوافدين المشغولين بحلق رؤوسهم مع أن أحدا من القبائل النازلة حوالي مكة لم يستجب له . وكانت نتيجة هذه الوسيلة الحكيمة التي اتبعها إمام الدعاة أن كان أولئك الستة نواة الدعوة الإسلامية في المدينة وطليعة الدعاة إلى الإسلام في خارج مكة المكرمة وفاتحة مستقبل ميمون لتاريخ الإسلام والمسلمين .

وإذا اتضح لنا أن المنهج المحمدي في تبليغ الدعوة هو أن يذهب الداعي إلى المدعوين بدون أن ينتظر مجيئ الناس إليه بل ومن حق المدعو أن يؤتي ويدعى ، وأن لا يستهان به ولا يستصغر شأنه . فيجب أن نفهم القواعد التي يقوم عليها هذا المنهج الصحيح : **القاعدة الأولى** : أن التبليغ قد يستلزم انتقال المبلغ إلى مكان من يراد تبليغه لاحتمال عدم وصول خبر الدعوة إليه . وأن مهمة التبليغ تسبق مهمة السامعين في الاستجابة لدعوة الحق ونداء الخير . وإذا لم تصل إليهم الدعوة ولم يسمعوا خبر الدعاة فكيف يطالبون بالاستجابة ؟ ولهذا كان رسل الله الكرام يأتون إلى أماكن الناس لتبليغ دعوة الحق والخير ، وإنماهم القدوة والمثل الأعلى في مجال وظيفة تبليغ الدعوة وعلى الداعي أن يقتدي بهم . **والقاعدة الثانية**: إن الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام أو لم يدخل الإيمان في قلوبهم في حكم التائهين والضالين عن الصراط المستقيم فلا بد من هدايتهم إلى الطريق الصحيح وتخليصهم من الضلال من قبل الدعاة إلى الله والهداة إلى طريق الحق ويخبروهم بالمرض الذي أصابهم والعلاج الذي يحتاجون إليه فكل هذا يحمل الداعي على الذهاب إلى الناس المطلوب دعوتهم في أماكنهم ومجالسهم . **والقاعدة الثالثة** : أن العلماء هم ورثة الانبياء والرسل ، لا يجوز لهم ترك الناس على الضلالة والجهل ولا ينبغي لهم أن ينتظروا ويصبروا إلى أن يأتيهم الناس ويسألوه . وعليهم المبادرة في الانتقال إلى الناس لتبليغ الإسلام والدعوة إلى الله ونشر العلم النافع . وأن من ضريبة

العلم الانفاق منه على المحتاجين . ويجب على كل عالم أن يؤدي حقه في خدمة دين الله ونشر علومه وإرشاد الضالين بين أهله وقريته وبلده بالتوجه إلى مساجدهم ومجامعهم ونواديهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، بعيدين كل البعد عن الاستهانة بأي فرد أو جماعة وعن التعالي بعلمه أو التعاظم بفضله بل خاشعين وهادئين وشاكرين أنعم الله عليهم وراجين فضله العظيم .

أنواع المدعوين الأربعة :

يمكن تقسيم المدعوين من كل مجتمع بشري . بحكم أوضاعهم الاجتماعية والفكرية ومستوياتهم الثقافية والعلمية ، ومكانتهم في المجتمع من حيث السلطة أو الجاه أو المال أو مدى استجابتهم لدعوة الحق إلى أربعة أنواع :

النوع الأول : القادة من رؤساء القوم وأعيان البلد وسادة المجتمع فهم أصحاب النفوذ والجاه والسلطة في البلاد . وكانوا هم الذين يتولون مقاومة دعوة الرسل الكرام في كل مكان وزمان . وأطلق القرآن على هذه الطبقة من الناس كلمة : " الملأ " لأنهم هم البارزون في المجتمع وفي أيديهم قيادة الناس والرئاسة. ومن الصفات الغالبة فيهم التكبر وحب الجاه والرئاسة والتهافت على متع الدنيا والغفلة عن الدار الآخرة . وهذه الصفات تمنعهم من قبول الدعوة الإصلاحية خوفا من تأثيرها على مكانتهم وترفهم ومركزهم المتوارث .

وعلى الداعي المسلم أن يتبع في المعاملة مع هذا النوع من الناس مناهج الرسل الكرام مستنيرا بقصصهم الواردة في القرآن الكريم وبالسيرة النبوية . وفيما يلي بعض الآيات الدالة على ما جرى لهم مع الملأ من أقوامهم :

قال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ((لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين)) وقال تعالى مخبرا عن الملأ من قوم عاد في معاملتهم مع نبيهم هود عليه السلام : ((قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين)) . وفي شأن موسى عليه السلام مع فرعون وملئه قال تعالى : ((ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين)) .

وأن الملأ من قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما قال الأولون لأنبيائهم بل وأشد منهم . وقال تعالى عن المتكبرين عن التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم : ((وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا

)) { سورة الزخرف – ٣١ } . وأن المعترضين على إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تكبروا عليه واستصغروا شأنه فقالوا : لولا كان إنزال القرآن على رجل عظيم في مكة أو الطائف . ورد الله عليهم قولهم بأن الأمر بيد الله وهو يعلم حيث يجعل رسالته ويعلم من يستحق للرسالة ونزول الوحي .

وقال رؤساء قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكبرا واستصغارا لضعفاء المسلمين الذين آمنوا بالرسول في أول الأمر ، مثل عمار بن ياسر وبلال الحبشي وصهيب الرومي : " لا نرضى أن نكون مع هؤلاء الضعفاء فاطردهم عنك إذا دخلنا مجلسك فإذا فرغنا من الحديث معك والسماع منك وخرجنا فأدخلهم إن شئت ، فأنزل الله تعالى قوله : ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم)) . وقال تعالى أيضا عن أولئك المتكبرين الذين طلبوا ذلك : ((ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)) . وليس هذا بدعا في تاريخ الأنبياء فقال قوم نوح عن أتباعه : ((ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)) { سورة هود – ٢٨ } ، وقد فات لهؤلاء وأولئك أن الأراذل في الحقيقة هم المخالفون للحق جهلا وعنادا وإن كانوا في الظاهر من كبار القوم وأن الشرف في اتباع الحق وخدمة الخلق .

ولا يخلو مجتمع من هذا النوع من الناس في كل زمان ومكان ويقفون غالبا في وجه دعوة الحق والدعاة إليه إما بدافع من الكبر أو حب الرياسة على الناس وخوفهم من أن تسلبهم هذه الدعوة الإصلاحية مكانتهم وترفهم ومركزهم القائم في المجتمع . ومنهم جماعة أخرى تقاوم دعوة الإصلاح بسبب الجهل والغباوة ولا يسمح لهؤلاء تقليدهم الأعمى لآبائهم وأجدادهم لاتباع الذين يدعونهم لإصلاح ما أفسده التقليد وترك الضلال الذي تفشي في أوساطهم وترسخ في نفوسهم بطول الأمل وخفة العقل وسفاهة النفس .

والنوع الثاني : المنافقون والمداهنون الذين يتظاهرون بقبول الدعوة رغبة في التقرب إلى المسلمين الصالحين الذين يستجيبون لدعوة الإسلام ونظرا للاحتفاظ ببعض المصالح الذاتية وفي الوقت نفسه يظهرون الولاء للسادة الذين يضمرون العداء للدعوة الإصلاحية ويترددون إليهم خوفا من ضياع قربتهم إلى هؤلاء السادة واستصغارا لشأن متبعي دعوة الحق والإصلاح وموقفهم أشبه بموقف المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى في شأنهم : ((وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)) .

وأن المنافق الذي يخفي الكفر في الباطن ويظهر الإسلام في الظاهر أشد ضررا من الكافر المعاند على المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية لأنه عدو خفي يخدع المسلمين بتظاهره وفتنته فهو إذن أسوأ من العدو الظاهر خطرا . وأما الذي يتبرر ببعض صفات المنافقين بحجة لوازم المجاملة أو من حسن الآداب بدون إيذاء للمسلمين وخداعهم في الخفاء أو الاشتراك سرا في المؤامرات التي يحيكها بعض المعارضين وأصحاب الأهواء ضد الدعوة الإصلاحية فيعامل بالحكمة وبالحسنى حتى يزول من قلبه الضعف والخوف

من المكانة والجاه . ويقوى فيه الإيمان بالله والإخلاص له ، ولا يرمى بالنفاق والردة جزافا ولا يخرج من صفوف المؤمنين بلا روية ولا عجل . وأن علينا الحكم بالظاهر ويعلم الله ما في القلوب .

والنوع الثالث : أهل المعصية الذين يرتكبون المعاصي ويخالفون أوامر الشرع مع الإعلان بالإيمان بالله ورسوله وكتابه والإقرار بالشهادتين ولكنهم متهاونون في أداء حقوق هذا الإيمان وهذه الشهادة ولم يصدر منهم إنكار شيء معلوم في الإسلام بالضرورة أو نطق بكلمة كفر أو خروج على جماعة المسلمين . وعلى الداعي أن ينظر إلى أهل المعاصي نظرة تعقل لأسباب سقوطهم في هذه المعاصي ونظرة شفقة لتخليصهم من هذه الهاوية . وأن الداعي الواعي لتحقيق هذه الغاية النبيلة لا يحتقرهم افتخارا بنفسه عليهم بطاعته على معاصيهم ولا يعيرهم علنا ولا يشمت بهم بل يتخذ الوسائل اللازمة بحكمة ويقظة لهدايتهم وإصلاحهم وجعلهم أعضاء صالحين في المجتمع الإسلامي المثالي الذي يعمل لإيجاده ، لأن احتقارهم وتشنيعهم علنا سوف يؤدي إلى تقوية جرثومة المعصية والاستهانة بالداعي ولحاق الأذى به .

ويبغي للداعي أن يتذكر دائما ما جاء في الحديث الشريف عن المسلم العاصي : " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " . وأن المسلم غير معصوم من المعصية . وأن الأنبياء والرسل هم المعصومون من الخطايا . وإذا وقع مسلم في معصية فعليه أن يسارع إلى التوبة ويقلع عن معصيته ويعزم على أن لا يعود إليها أبدا . ويعصي المسلم إما بسبب ضعف في إيمانه ، أو بجهل أو بغفلة بدافع من إغراءات الشيطان أو شهوات الدنيا . وأن الداعي يعمل معهم مثل الطبيب الخبير فيكشف أصل الداء ثم يشعر المريض بالمرض الذي ابتلى به ثم يدفعه لتناول الدواء الذي يصفه لإنقاذ نفسه من التهلكة ويستعيد صحته كاملة . ثم يتعهد بحالة مريضه حينا فآخر حتى يتأكد من مراعاته لإرشاداته ونجاته من زلاته .

النوع الرابع : عامة الناس وهم جماهير الشعب ما عدا الرؤساء والأعيان الذين هم في العبادة قلة وأما ما عداهم فهم أكثرية الناس في أي مجتمع بشري في العالم ويكونون غالبا على الفطرة ولم تفسد نفوسهم بحب الرئاسة وشهوة الجاه والسلطة كما يكونون عادة من الطبقات العامة التي تباشر مختلف أنواع الحرف والمهن ومنهم أيضا طبقة الفقراء والمساكين والكادحين . وهؤلاء الأصناف من الناس أسرع من غيرهم إلى الاستجابة إلى دعوة الحق واتباع الدعاة إلى الخير .

ويتضح لنا من قصص الأنبياء ، والرسل أن الذين آمنوا بهم وصدقوا بنبوتهم هم الجمهور قبل غيرهم . والسبب الطبيعي لهذه الاستجابة السريعة منهم أنهم خالون من موانع القبول السريع الموجودة في غيرهم من الأعيان والسادة والعصاة والمترفين كحب الرياسة وخوف ضياع المكانة التي توارثوها في المجتمع ظلما وباطلا ، والتكبر والتعالي عن انقياد الغير والانغماس في الترف والأهواء النفسية . ولهذا تستنكف هذه الطبقة عن اتباع دعاة الإصلاح وتستصغر شأن الذين يتبعونهم ويرمونهم بالسفاهة والاستكانة. كما يحبون المكائد لتضليلهم وإغوائهم .

وحكى الله سبحانه وتعالى قول الملأ من ثمود : ((قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون)) . ويستطيع الملأ الذي بيده الجاه والمال والقوة أن يرهبوا الجمهور ويثبطوا هممهم وعزائمهم بالإغراء بالمال والجاه وبالتهديد بالإيذاء والبطش . وقال تعالى في شأن فرعون وملئه : ((فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين)) { سورة يونس – ٨٣ } . وكذلك كان أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في مكة من الضعفاء وقد نالهم من مشركي قريش أذى كثير .

وفي السيرة النبوية أن أشراف قريش عرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، المال الكثير يعطونه له إذا ترك دعوته كما وعدوه بالملك والسلطة والجاه مما يدل على أن السادة والكبراء يغرون الناس بالمال إعطاء أو منعا لصدهم عن الدعوة إلى الحق وقبولها . ومن ناحية أخرى يسلك أصحاب الرياسة والأموال والأغراض الذاتية مع هؤلاء الدعاة والذين يتبعونهم سبيل إثارة الشبهات والافتراءات حولهم بدعوى حماية عقيدة الناس ومصالحهم والمحافظة على تقاليدهم وعاداتهم الموروثة والدفاع عن آبائهم وأجدادهم ، فقال تعالى عن مثل هذه المسالك : ((وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)) { سورة المؤمن – ٢٦ } .

ومثل هذا كان زعماء قريش يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه يريد إفساد عقيدتهم وتسفيه آلهتهم . ومن الشبهات التي وقعوا فيها أن لهم الأموال الكثيرة والجاه والسلطان وتوهموا أن هذا دليل على أحقيتهم وصلاحيتهم لهذه المهمة ! فكيف كان فرعون يعتز بملكه وثرائه وسلطته ويوهم بها قومه أنه أحق بالحق والاتباع من موسى الذي ليس عنده شيء مما عند فرعون من أسباب هذه المنزلة . وقال تعالى: ((ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أ ليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين)) . وأن مثل الأوهام والشبهات على بطلانها وسذاجتها فإنها تؤثر في الجمهور لأن الإنسان العادي ينخدع بالأسلوب الناعم المزخرف وينبهر بمتع الحياة الدنيا ومباهجها ويزداد اغترارا إذا كان ذلك الأسلوب مصحوبا بالتهديد بالقوة والإيذاء بالحرمان ، فلا ينجو منه إلا الراسخون في العلم بأن الله تعالى يعطي المال والجاه لمن يحبه ولمن لا يحبه فلا يكون المال والجاه دليلا على صلاح الشخص وصواب دعواه ومع وجود احتمال تأثر الجمهور بإغراءات السادة والزعماء وأضاليلهم كما حصل من فرعون وملئه وقادة قريش ، فإن الجمهور في كل زمان ومكان أسرع من غيرهم إلى الاستجابة لدعوة الحق . ويجب على الداعي المسلم أن يضع نصب عينه دائما أن أتباع رسل الله كانوا من جمهور الناس . وعليه أن يتخذ منهم قاعدة لنشر الدعوة بين سائر أنواع المدعوين .

مهبــط الرســالة المحمديــة

إن العالم العربي الحاضر يحتل جغرافيا الركن الجنوبي الغربي من قارة آسيا والجزء الشمالي من قارة أفريقيا حيث يمتد من الخليج العربي في الشرق إلى المحيط الأطلنطي في الغرب ومن البحر المتوسط في الشمال حتى خليج عدن والمحيط الهندي وأواسط أفريقيا في الجنوب ، وجدير بالذكر أن العالم العربي يمتد من غير انقطاع سواء أ كان ذلك من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب، وهو يشغل مساحة كبيرة تقدر بنحو اثني عشر مليونا من الكيلومترات ، وهذه المساحة تفوق مساحة قارة أوروبا .

وأما شبه الجزيرة العربية محدودة من الغرب بالبحر الأحمر ومن الجنوب ببحر العرب ومن الشرق بالخليج العربي ومن الشمال ببادية الشام ، فتعتبر موطن الأمة العربية الأصلية ويرتبط العرب في كافة أنحاء العالم العربي بشبه الجزيرة العربية برباط روحي وثيق ، فهي الموطن الأول الذي خرج منه العرب يحملون لواء الإسلام وينشرون اللغة العربية ، ويقول العالم الجغرافي المعروف أبو اسحاق الاسطخري : " وديار العرب هي الحجاز الذي يشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ونجد الحجاز ، المتصل بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة العربية وبادية الشام ، واليمن المشتملة على تهامة ، ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن . وما كان من حد السرين حتى ينتهي إلى ناحية يلملم ، ثم على ظهر الطائف ممتدا على نجد اليمن إلى بحر فارس مشرقا فمن اليمن، ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب ، وما كان من حد السرين على بحر فارس إلى قرب مدين، راجعا في حد المشرق على الحجر إلى جبل طي ، ممتدا على ظهر اليمامة إلى بحر فارس فمن الحجاز ، وما كان من حد اليمامة إلى قر المدينة راجعا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين إلى البحر فمن نجد ، وما كان من حد عبادان إلى الأنبار مواجها لنجد والحجاز ، على أسد وطي والتميم وسائر قبائل مضر فمن بادية العراق ، وما كان من حد الأنبار إلى بالس مواجها إلى بادية الشام على أرض تيماء وبرية خساف إلى قرب وادي القرى والحجر فمن بادية الجزيرة . وما كان من بالس إلى أيلة مواجها للحجاز على بحر فارس إلى ناحية مدين معارضا لأرض تبوك حتى يتصل بديار طي فمن بادية الشام " [المسالك والممالك ص – ٣١ طبع جمهورية مصر العربية سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦١ م } .

آراء العلماء في تسمية العرب :

وتعددت آراء العلماء في بيان آوجه تسمية العرب ، فقال بعضهم إن لفظة " العرب " مشتقة من " الإعراب " وهو البيان أخذا من قولهم أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان ، سموا بذلك لأن الغالب عليهم البيان والبلاغة وقيل إن نسبته إلى يعرب بن قحطان بعد تغيير يسير لأنه على ما قيل أول من أنطق الله لسانه باللغة العربية وهو أب اليمنيين كلهم الذين عرفوا بالعرب العارمة ، ونشأ إسماعيل عليه السلام في قبيلة جرهم منهم في مكة فتكلم بلسانهم ، وقيل إن أولاد إسماعيل نشأوا بعربة وهي من تهامة فنسبوا إلى

بلدهم . قال الأزهري : " والأقرب عندي أنهم سموا عربا باسم بلدهم العربات " وقال ياقوت " إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب " وقال أبو تراب إسحاق بن الفرج : "عربة باحة العرب وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليما السلام " . وقال هشام بن محمد بن السائب: " جزيرة العرب تدعى عربة ومن هنا قيل للعرب عربي " . " لسان العرب لابن منظور الأنصاري في مادة (العرب) . ودائرة المعارف في القرن العشرين في مادة (العرب) أيضا " وقال البعض : إن العرب كان مسكنهم الأصلي القديم العراق ثم انتقلوا إلى الجزيرة العربية التي هي غربي العراق فسموا عربا أي عربيين لأن العين مفقودة في اللغات السامية ، [تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية لحفنى ناصف ج ١ ص ١١] .

ومن هنا انقسمت طبقات العرب إلى ثلاثة أقسام : العرب البائدة والعرب العارمة أو العرباء والعرب المستعربة ، فالبائدة هم العرب الذين بادت شوكتهم واندثرت ثراهم ومنهم عاد ثمود والعمالقة وجرهم وطسم مدين أميم وآدم ، وهذه البائدة كانت أمما ذات ممالك رفيعة وحضارات راقية وثقافات عالية ولم يصلنا عن هذه الطبقة إلا ما ورد في الكتب السماوية ، وكانت لبعض هؤلاء دول واسعة ممتدة إلى الشام ومصر ووجدت آثارها في اليمن وصحارى الحجاز والأحقاف وعمان وغيرها . وأما العرب العاربة أو العرباء فهم بنو قحطان من أولاد سام بن نوح وهم عرب اليمن ، وقيل أن بني قحطان كانوا يتكلمون باللسان الكلداني ، لسان أهل العراق الأصليين وأول من تكلم العربية يعرب بن قحطان ونشأ منها العربية الحميرية [حياة اللغة العربية ص ٨ وهي مسامرة الشيخ محمد الخضر بن حسين أحد المدرسين بجامعة الزيتون والمدرس بالمدرسة الصادقية القاها بنادى الجامعة الخلدونية سنة ١٣٢٨] . وسمى هذا القسم من العرب بالعاربة أو العرباء لأنهم خلصاء في عروبتهم لم يمتزج بهم دم أجنبي ولم تدخل فيهم أجناس أخرى . وأما العرب المستعربة فهم الذين دخلوا في العاربة من أولاد إسماعيل بن إبراهيم واندمجث لغتهم بلغتهم . ولحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ترك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في مكة عند تل مرتفع كان فيه بيت الله الذي انهدم في طوفان ، وقد شب إسماعيل عليه السلام وترعرع في قبيلة جرهم الثانية الذين نزحوا إلى مكة واستقروا بها بينما كان أبوه يزوره بين الحين والحين . ومن أشهر أولاد إسماعيل عدنان ومن أولاده معد ثم نزار ومنه انشعب ربيعة ومضر ، وبعد أن ضاقت مكة بالقبائل المتفرعة من ربيعة ومضر وغيرهما بدأوا يهاجرون إلى أصقاع متعددة كما نزل بنو عبد القيس المتفرعة من ربيعة البحرين وبنو حنيفة اليمامة .

المناخ السائد حينذاك :

عرفنا أن البلاد العربية الآن تشغل مساحة كبيرة من الأرض تمتد من شواطئ المحيط الأطلنطي غربا حتى شواطئ الخليج العربي شرقا ، وكذلك أن شطرا كبيرا من هذه البلاد يطل على البحر المتوسط وأن هناك أجزاء منها تمتد حتى قلب أفريقيا وأن اتساع الرقعة والفوارق الجيولوجية والجغرافية لكل من هذه البلاد قد أحدث تنوعا في مظاهر الحياة فيها وكذلك في مناخها وثرواتها الطبيعية . ونكتفي هنا بالإشارة

إلى ظروف المناخ . ومظاهر السطح وتنوعات المواسم في شبه الجزيرة العربية . أن أراضي شبه الجزيرة العربية يختلف ارتفاعها من جهة إلى أخرى وقد ترتب على ذلك تنوع في درجات الحرارة واختلاف كمية المطر وأن نصيب الجزيرة العربية من المطر في الشتاء قليل وأن هذه الكمية يسقط معظمها على أجزائها الشمالية . والحرارة فيها مرتفعة في الصيف بصفة عامة . وأكثر الجهات حرارة هي سواحل الخليج العربي والربع الخالي ، وتكون الحرارة معتدلة في المناطق المرتفعة مثل نجد وعمان وعسير واليمن .

وتأثر النشاط البشري في شبه الجزيرة العربية بعامل مناخها وفصولها وكان نتيجة لذلك أن كانت حياة سكانها حياة الانتقال والإسفار ، قد اشتغل البدو بالرعى حيث تنمو الاعشاب وتوجد مناقع الماء وقام الحضر بالأسفار للتجارة صيفا وشتاء ، وفرضت الظروف الطبيعية على أن يكون الرعى مصدر العيش اليومي للقبائل العربية فتنقلت إبلها وأغنامها وخيولها من بقعة إلى أخرى من بقعة يابسة جرداء إلى بقعة خضراء ، ولعل هذا التزاحم بين القبائل البدوية على العشب والماء قد أدى إلى التنازع والقتال فيما بينها ، غير أن بعض العرب استقروا عند مفارق الطرق التجارية التي توفرت فيها الآبار والمياه وتركز معظمها في الجزيرة العربية ثم انتقلت البضائع منها ، بواسطة القوافل عبر الحجاز وأما مكة فقد توسطت الطريق البري بين اليمن والشام فتهيأت الفرصة لقبيلة قريش للتجارة والرحلة وأهمها رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن حيث تصل المتاجر الهندية في هذا الموسم بفضل مساعدة الرياح للسفن كما أشار إليه القرآن الكريم الحكيم : ((لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)) { سورة قريش } .

وهكذا كانت جزيرة العرب بموقعها الجغرافي في وسط القارات وبطبيعة أهلها الرحل ، ممهدة وصالحة لأن تكون مهبطا لرسالة سماوية خالدة ومحطا لدعوة إنسانية شاملة .

اللغة العربية وعاء القرآن

والعلوم الإسلامية

نتحدث عن العرب وحياتهم ولغتهم في وقت البعثة المحمدية وذلك لنقف على الجو الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي نشأت فيه الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب . كان تفكير العرب الديني مطابقا لما اختصت به بيئتهم من خصائص اجتماعية واقتصادية وسياسية .

وأهم ظواهر الحياة البشرية في جزيرة العرب في العصر الجاهلي هي غلبة الحياة القبلية على جميع السكان ، لأن المناطق الزراعية الصالحة لاستقرار الحضر فيها كانت قليلة ، وما كانت تعدوا بضع مدن أو قرى على حين انتشرت الصحاري والبوادي الشاسعة الملائمة للحياة القبلية البدوية . وكان النظام القبلي يمثل الحياة الاجتماعية والسياسية في البادية ، واقتضى هذا النظام اختيار أحد أفراد القبيلة برئاستها فيكون اختياره بقوة شخصيته ونفوذه بين أفراد القبيلة مع سمو أخلاقه وشجاعته في الدفاع عنها . وصارت العصبية للقبيلة ظاهرة عامة في حياة العرب البدو والحضر . ويرجع بعض الباحثين عن العرب أسباب كثرة حوادث الصراع والحروب بين القبائل العربية قبل الإسلام إلى تأصيل الشعور بالفردية في نفوس أبناء القبيلة حتى أنهم نظروا إلى القبائل المجاورة على أنها وحدات منافسة أو معادية ولهذا كثرت حوادث الصراع حول امتلاك ينابيع المياه ومناطق الكلأ التي هي مصدر الحياة للبدو . وعرفت أشهر حوادث الصراع بين القبائل في العصر الجاهلي باسم أيام العرب فبدأت كل حرب بصراع بين أفراد قلائل ثم لم يلبث أن يتسع نطاقه فينغمس فيه سائر أبناء القبائل المتنازعة . [تاريخ العالم العربي وحضارته تأليف الأستاذ محمد مصطفى زيادة وغيره طبع وزارة التربية والتعليم ج . م . ع . سنة ١٣٨٣ هـ] .

مكـة أم القـرى :

وإن الذي ينبغي أن يلاحظ أن القبيلة الوحيدة التي استطاعت أن تنظم نفسها . وأصبحت سيدة جزيرة العرب كلها هي قبيلة " قريش " بمكة ، وذلك بفضل عدة عوامل تمتاز بها عن غيرها من القبائل العربية . وانفردت مكة عن سائر مدن الجزيرة العربية وقراها بوجود الكعبة المكرمة التي هي أول بيت وضع للناس في وجه الأرض ، والذي رفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وساعد وقوع مكة عند منتصف الطريق التجاري العظيم بين اليمن والشام ، ووجودها على مسافة حوالي خمسين ميلا من ساحل البحر الأحمر ، وكذلك كونها مركزا للحج العرب السنوي العام حتى قبل الإسلام ، على تطور هذه العاصمة العربية بحيث أصبحت تسمى " أم القرى " في الحجاز حتى صار هذا الاسم علما عليها في التاريخ وقامت إلى جانبها مراكز حضارية أخرى مثل يثرب (المدينة المنورة) والطائف، ولكن لم تتمتع منهما بما نالته مكة من مميزات دينية واجتماعية واقتصادية .

وإذا كانت البيئة في بلاد العرب قد خلقت في كثير من الأفراد والجماعات القبلية عادات اجتماعية مؤذية من التحارب والتصارع والتنافس على وسائل العيش ومصادر الكلأ ، فإن هذه البيئة نفسها خلقت بين العرب عادات اجتماعية كريمة منها حماية الجار والبسالة والمروءة وكرم الضيافة والوفاء بل وتسابقوا جميعا في ميدان كسب السمعة الحسنة بالتزام هذه الصفات العالية . ومن عاداتهم الكريمة أيضا حب الحرية واحتمال الشدائد من أجل الدفاع عنها .

الحالة الدينية في جزيرة العرب حينذاك :

وكانت معظم القبائل العربية تعبد الأوثان التي تركزت في الكعبة وكان العرب يحجون إليها سنويا من كل مكان ، وكذلك عبد بعض العرب الكواكب والنجوم ، غير أنهم لم يكونوا في عزلة دينية عمن حولهم من أهل البلاد المجاورة لا سيما الشام والعراق ومصر والهند . أما اليهودية فاستقرت في بعض بلاد الحجاز مثل خيبر والمدينة ، والمسيحية قد انتشرت في شمال بلاد العرب قرب أطراف الدولة البيزنطية المسيحية وفي جنوبها الغربي في اليمن المجاورة للحبشة ، وقد ظهر بين العرب وثنيين ولا سما بين العرب في مكة جماعة من المفكرين الذين قالوا بوحدة الخالق ، وبشروا بقرب ظهور نبي جديد ، ومن هؤلاء المفكرين ورقة بن نوفل الذي بشر بنبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ووحدة كلمة العرب تحت رايته .

ويقول العالم المحقق الدكتور عبد الحليم محمود ، في معرض الكلام عن الأديان في جزيرة العرب وقت البعثة المحمدية : " على أن الذي ينبغي أن يلاحظ أن جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية : كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكانت اليهودية في حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم : منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، منهم الأقرع بن حابس ،كان مجوسيا ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ، ومن العرب من كان يدين بالرجعة ، يقول صاحب لسان العرب : والرجعة مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم . ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار أو القول بالاختيار بعيدا عن العقلية العربية : ويقول يحيى بن متى رواية الأعشى : كان الأعشى قدريا وكان لبيد مثبتا ، قال لبيد :

من هداه سبيل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء والعمل وولى الملامة الرجلا

ويلقى العلامة الشيخ مصطفى عبد الرزاق مزيدا من الضوء على حياة العرب الدينية وقت البعثة المحمدية : " ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدي ، فإنهم لم يكونوا في سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من أدبائهم وما روى من آثارهم الأدبية . وكان العرب عند ظهور الإسلام يتشبثون بأنواع من النظر العقلي يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها لما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك " [تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٠٣ ، ١٠٥] .

والذي يتضح من حالة الأديان في جزيرة العرب وآراء العلماء في شأنهم أن الجزيرة لم تكن بمنأى عن التفكير الديني وكان لهذا الوضع تأثير في موقف العرب تجاه القرآن ونبيه وقد خاطب القرآن العرب أولا . فكانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون النبي في الدين وما يتصل به من المسائل المعضلة التي كان كبار الفلاسفة يبحثون فيها . يجادلون في الخلق وفي البعث وفي إمكان الاتصال بين الله والناس وفي المعجزة ، وما إلى ذلك من المسائل التي تدل على أن العرب عند البعثة المحمدية في بعد أو فتور من الناحية الدينية ، بل لم يكونوا كلهم سننا واحدا ، فكان فيهم الوثنيون وأهل الكتاب ، وموحدون ، وكما يرى في القرآن في بداية نزوله الرد على والثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى وعلى الصابئة والمجوس لأن العرب أنفسهم كانوا يمثلون هذه الديانات والفرق .

أحوال العرب الأدبية في وقت البعثة المحمدية :

بلغت اللغة العربية أوج مجدها في الفصاحة والنتاج الأدبي شعرا ونثرا وظهرت روائع انتاجها في ثلاث نواحي ، وهي الأشعار والأمثال والقصص ، واشتهر العرب في العصر الجاهلي شهرة عظيمة بالشعر ، إذ وجدت عبقرياتهم فيه حقلا خصبا للنمو والازدهار ، حتى صار من الأقوال المأثورة : "الشعر ديوان العرب " بمعنى أنه سجل حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم وتاريخهم وأنسابهم واشتهرت من بين القصائد العربية القديمة ، سبع قصائد هي المعلقات ، وهي المثل الأعلى الخالد للشعر العربي في جميع العصور وسبب تسميتها بهذا الاسم أن كل قصيدة منها حصلت على جائزة التفوق في سوق من أسواق عكاظ السنوية ، وأنها كتبت بحروف من الذهب على قماش من الحرير وعلقت على جدران الكعبة وفي مقدمة هذه القصائد التي نالت هذا التقرير السنوي ، قصيدة امرؤ القيس [المتوفى ٥٤٠ م] .

وقد نالت لغة قبيلة قريش السيادة على سائر اللغات لأن مكة كانت ملتقى القبائل المختلفة في مواسم التجارة بالحجاز . وأن لغة قريش وجدت في سوق عكاظ وغيره من الأسواق القريبة من مكة فرصة للانتشار دون سائر لهجات القبائل الأخرى . ولا سيما بعد أن وضحت قدرة لغة قريش على تعريب الكثير من الألفاظ الأجنبية واستخدامها في سهولة ، حتى بلغت اللغة العربية القريشية قبل البعثة المحمدية أوج كمالها في التعبير البليغ السامي عن جميع مقومات الحياة . ومع نزول القرآن في هذه اللغة ارتفع شأنها وأصبحت اللغة السائدة في بلاد العرب المسلمين .

ويقول العلامة أمير علي عن وضع مكة في وقت البعثة المحمدية فيها : " أن مكة لم تكن منذ أقدم العصور مركز الاجتماعات الدينية عند العرب فحسب ، بل كانت كذلك مركزا لأعمالهم التجارية أيضا . ولما كانت مكة تقع على الطريق السلطاني للتجارة في العالم القديم ، فقد أفادت من ثروة الأمم المجاورة وثقافتها ، ولم يستطع الملك البابلي نفسه أن يمس مركزها التجاري بسوء ، ذلك أن عرب الحجاز كانوا بحكم موقعهم حملة التجارة بين أمم العالم . وكانت مكة مركز النشاط التجاري الذي امتاز به العرب في جميع العصور على غيرهم من أمم الشرق ، فكانت تنتشر منها القوافل التي تحمل إلى الفرس والروم حاصلات اليمن الغنية والهند المشهورة ، وتجلب من الشام حرير فارس وأصوافها " [روح الإسلام ج١ ص٦٥] . ووضح مما سبق أن اللغة العربية كانت في وقت البعثة المحمدية سجلا خالدا لأحوال العرب . ومظهرا حيا لحياتهم وتاريخهم ، ولهذا وغيره من الأسرار والحكم ، التي يعلمها خالق البشر والقوى ، صارت اللغة العربية وعاء القرآن الكريم كما أشار إليه قوله تعالى : ((وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين)) { الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥ } .

من أهداف الدعوة الإسلامية

أولا : صقل العقول الإنسانية بالإيمان بوجود صانع لهذا الكون ، والتوحيد في هذا الصانع الخالق العالم بجميع الأمور فلا يجري أمر في هذا الكون إلا بقضائه وأمره ومشيئته وإرادته وهو علام الغيوب ، وبتطهير العقول من أدران الخرافات والخزعبلات ونبذ كل ظن في إنسان أو أي مخلوق آخر علويا كان أو سفليا ، بأن يكون له أثر في الكون من نفع أو ضر .

ثانيا : فتح باب الشرف والكرامة والسمو للأنفس كلها ، ولكل نفس حق السمو إلى الكمالات الإنسانية ما استطاع إليه سبيلا ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف . فلا تفاضل بين الأفراد والجماعات إلا بالفعل الصالح العام لخير الإنسانية كلها ولا فخر لأحد على آخر ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ولا حكم لأحد على أحد إلا تنفيذ أحكام خالق البشر وتطبيق القوانين الإلهية ، " الناس سواسية أمام القانون الإسلامي " .

يقول الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام : " لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض فالناس كلهم سواسية كأسنان المشط " .

ويقول القرآن الكريم : ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)) . ثم يحدد فضل الإنسان مهما بلغ في الكمال النفسي ، والمالي والعلمي وغيرها في دائرة سعيه فيقول : ((وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)) .

ثالثا : تقويم الإنسان بالكمال الروحي والنفسي معا ، فلا يكتفي الإسلام بأحد الكمالين دون الآخر . بل يوجب على العالم الإنساني كله أن يصل إلى كمال الروح والنفس ، لأن الإنسان في نظر الإسلام مركب من شيئين " الروح والنفس " فلا تكمل الإنسانية إلا بالكمالين معا .

رابعا : تعليم جميع طبقات الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم لا يترك فردا من الأفراد ولا طائفة من الطوائف إلا أوجب عليها طلب العلم والتثقف بثقافات إنسانية عليا ، إيجابا لا مفر منه أمام حكم الإسلام ومبادئه ويقول الرسول الأكرم عليه السلام : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " . وهذا التوجيه يشمل كل مسلم ومسلمة بدون قيد ولا شرط ولا استثناء ، ثم يقول : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فيتبين من هذا وذاك أن مهمة الإسلام – أولا وبالذات تثقيف العالم الإنساني بثقافات فاضلة وتربيته تربية

عالية . وطبعه على الأخلاق المحمودة ، فيعلن القرآن الشريف غرض بعثة محمد عليه السلام بدستور إلهي إلى العالم الحائر المضطرب بقوله : ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) وعلى هذه الأركان الأربعة بنى صرح الإسلام ، وبها خلص ذلك العالم الزاخر من المشاكل المحيطة به ، والاخطار . ولكل ركن منها الأثر البالغ في تقويم المدنية وتشييد بناء النظام . وتدعيم السعادة الإنسانية . إن معيار الرقي والانحطاط في العالم الإنساني هو التمسك بهذه العناصر أو عدمه بشكل أو آخر .

الإسلام دين الإنسانية في جميع أطوارها

القول الفصل في هذا الموضوع هو أن الإسلام دين الإنسانية كلها في جميع الأقطار والأطوار، وأن للإنسانية تطورات ومراحل كما للإنسان تطورات ومراحل من طفولة وكهولة وشيخوخة فيكون الدين الذي يجئ به نبي من الأنبياء في دور من الأدوار الإنسانية صالحا لذلك الدور الذي وصلت إليه الإنسانية في ذلك الوقت ، ومحققا لمطالبها وأهدافها في ذلك الدور ، لأن الدين في نظر الإسلام نظام الحياة البشرية في جميع مرافق الحياة مع أن مهمة كل دين أولا وبالذات تصفية الأديان السابقة مما علق بها من خرافات وخزعبلات بأيدي المغرضين أو الجهال أو المخرفين ولبعد الناس عن تعليمها الحقة . إما لفقدان المصلحين المرشدين أو لقلتهم ، أو للعناد والجماح من البعض الذين يتبعون الشهوات والأهواء . ومن هنا يتضح أن الأديان كلها حلقات متكاملة متراصة متكاتفة في سلسلة الأديان ، فالدين الذي جاء به محمد بن عبد الله عليه السلام هو آخر حلقة من حلقات الأديان في الإنسانية بدليل أنه لا يخفى على من تصفح صفحات الكون . ونقب في أرجاء الأرض أن الكون كتاب الله المختوم ، كما أن القرآن كتاب الله المرقوم . وأن الأديان السماوية في مختلف عصورها كانت مهمتها – بعد التصفية المذكورة – تكميل الإنسانية بمبادئ تحفظ جميع مصالحها وتحقق أهدافها وتدفعها عن سائر الأخلاق السيئة وتحثها على جميع الأخلاق الفاضلة ، كل هذا بقدر ما تطيق الإنسانية في ذلك الدور الإنساني وفي تلك البيئة حتى وصلت الإنسانية إلى قمتها في الرقي العقلي والوعى الإنساني فيكون الدين الذي يبعث به رسول الله في ذلك الدور دينا وصل إلى قمة الأديان في صلاحيتها وموافقتها لجميع التطورات الإنسانية وأدوارها وبيئتها وأقطارها . ويكون فيه حل لمشاكل العالم لأن الله سبحانه وتعالى قد بعث النبيين والشرائع جميعا برسالة واحدة في جوهرها وأصولها وغاياتها فيقيم منهم اللاحق دينه ورسالته على بناء من سبق فيصدق اللاحق منهم للسابق ويمهد للاحقه – هذا خاص بغير آخر الأنبياء من سلسلتهم – كما بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله : ((وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري . قالوا اقررنا ، قال فاشهدوا (كل منكم لكل منكم) وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض)) .

فأما مسألة وصول الإنسانية إلى قمتها في زمن بعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من الرقي العقلي والروحي ، وإلى ذروة شبابها من الفتوة والقوة ، وإلى منتهى استعدادها لتحمل رسالة منظمة كاملة شاملة صالحة لكل أزمنة وأمكنة ، فيظهر ويتبين لكل من له إلمام عن حالة التطور الإنساني في بقاع الأرض كلها وعن مدى رقي الإنسانية في القرآن السابع الميلادي ، ويضاف إلى ذلك أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة تجمع البشر كلهم وتقود الإنسانية كلها بدستور صالح لكل البيئات والتطورات وفي جميع مرافق الحياة ، ومتكفل بمصالح الإنسانية في المعاش والمعاد ، ثم تكفل بحفظه للناس كافة خالق البشر سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة ، بقوله في القرآن : ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) . ولم يتكفل بهذه الكفالة لأية حلقة من حلقات الأديان قبل دين محمد عليه السلام ، فإذا كان هذا شأنه فهو حرى بأن

يكون خالدا عاما ، وآخر حلقة من سلسلة الأديان ، وأن يكون رسوله آخر نبي من سلسلة الأنبياء عليهم السلام .

وكل هذه غير خاف على كل عقل متدبر ، وقلب واع وبصر حاد وفهم سليم : " فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " .

دعوة عالمية شاملة

إن العالم اليوم يجتار فترة من أخطر الفترات في تاريخه . وهو الآن على فوهة من البركان لا يدري أحد إلا الله متى ينفجر هذا البركان ويتدمر العالم الإنساني كله مع حضاراته المتنوعة واختراعاته الحديثة واكتشافاته الجديدة .

إن السبب الوحيد لهذه المشاكل هو شهوة الاعتداء من القوى على الضعيف ومن الغني على الفقير، ومن الذكي على الغبي ، فشرع الزعماء والقادة يفكرون في جميع أقطار العالم لوضع حد لهذا التوتر الحالي الدولي ، ولهذا العقلية الطائشة التي تؤدي بالنوع البشري إلى الهلاك والدمار ، وأخذوا يدعون الناس إلى ضرورة الوحدة والتحالف والتعاون والتضامن ، ولكن لا يخفى على من له إلمام بعقلية هؤلاء الزعماء وبأهدافهم وأغراضهم في هذه الحياة وبما وراء تلك المحاولات والدعوات من الأهداف ، أنهم ليسوا مخلصين في كل هذا وذاك ، ولم تسلم أفكارهم ولا عقولهم من العصبيات والأطماع .

فإذن لا خلاص لهذا العالم الزاخر بالتقلبات الملئ بالأخطار إلا بفكرة إنسانية عامة كاملة ، إنها الفكرة التي دعا إليها وبها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أكثر من أربعة عشر قرنا ، وهدفها الأول تأسيس " جامعة إنسانية عالمية " .

إن صرح الإسلام لمبنى على أساس التوحيد – لا على التوحيد بالله فحسب ، بل التوحيد في العقائد والعبادات ، وأصول جميع الأديان والأنبياء والشعوب حتى يؤدي إلى وحدة إنسانية تحت راية العدالة والمصالح العامة ، والتعاون والتضامن الفطريين الإنسانيين ، لأن الإسلام دين فطرة شاملة لأصول جميع الأديان السابقة عليه ، ومعترف بكل رسول أو نبي من آدم إلى محمد خاتم رسل الله عليه السلام ، وإن مثل الأنبياء الذين جاءوا في مختلف الأزمنة والأمكنة والبيئات كمثل الولاة في الدولة الواحدة وكذلك مثل الأديان المختلفة في بعض الأمور الفرعية كنسخ دين متأخر دينا متقدما عنه في الزمان ، كالتعديلات في القوانين

الدولية – وأن أمة الإسلام هي الجنس البشري كله ولا يوجه دعوته إلى جنس خاص ولا طائفة معينة ، ولا لبلد دون آخر .

((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)) .

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

" الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى "

ولا فرق تحت راية الإسلام – في إقامة العدل التام وإقرار الأمن والطمأنينة ، وفي نشر العلم والثقافات ، ومنع الظلم والاعتداءات على النفس والمال والعرض – بين شخص يعتنق تعاليمه الخاصة وبين من يعتنق دينا آخر ، وإن الهدف الأول من تعاليم الإسلام تحقيق الوحدة الإنسانية مع الأمن والطمأنينة والرفاهية في ربوع العالم كله ، ويجب أن ينظر إلى كل إنسان ، قبل كل الاعتبارات ، من حيث أنه إنسان فقط ، لأن الإنسانية فوق كل اعتبار في نظر الإسلام ، بل الإنسانية الحقيقية هي الإسلام الحقيقي ، فيهدي الإسلام بهذه الفكرة إلى تأليف " جامعة إنسانية عالمية " تضم الأصناف البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها ، لا تعرف الحدود الجغرافية ولا الاختلافات اللونية ، أو الجنسية أو اللغوية، ولا تتسرب إليها العقلية الجامدة والفكرة الضيقة .

وعلى هذه الفكرة السامية قامت الدولة الإسلامية الأولى في عصور انبثاق فجر الإسلام –الإنسانية الكاملة – غاية . وما عداها وسيلة وكانت الفوارق الجنسية والوطنية تتلاشى أمام هذه الغاية العليا . وكان أن ساد الأمن والطمأنينة في العالم . وشاعت الرفاهية والسعادة في النوع الإنساني كله ، وانتشرت الأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة في البلاد التي صارت تحت راية هذه الفكرة الإسلامية الراسخة في نفوس الملايين من البشر .

ثم جاء من بعدهم خلف انحرفوا عن تعاليم الإسلام الحقة ، واتبعوا الشهوات والأهواء فتسربت العصبيات والفرقة إلى قلوبهم الجامدة وعقولهم الرجعية . فضلوا وأضلوا كثيرا ، ثم ضاعوا وأضاعوا فصاروا وصمة عار في جبين الإسلام ، لأن الناس أخذوا يتعلمون تعاليمه (بجهلهم قواعد البحث والتحقيق وضوابط الحكم على الدين) من أعمال المنتمين إليه وأقوالهم ومعاملاتهم والإسلام منهم برئ ، مع أن الدستور الوحيد للإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله لا أقوال الرجال ولا أعمالهم ولا مؤلفات وضعت بأيدي زيد وبكر ولا آراء طائفة وحزب .

هذا وإن نصوص القرآن وسنة الرسول مليئة بمبادئ وقوانين وإرشادات وأحكام ومشروعات ونظم لتأسيس " جامعة إنسانية عالمية " تقوم على الفكرة الإنسانية العالمية المتكاملة لا يعرف أعضاؤها الأحقاد والضغائن ، ولا تتسرب إلى قلوبهم الأطماع وفكرة الطغيان . ويعد كل منهم نفسه كغيره ، عضوا في الجسم الإنساني وركنا في أسرة الجنس البشري .

الإسلام دين الفطرة

من أهم الميزات التي يمتاز بها الإسلام أنه دين الفطرة ، كما أنه دين العقل والعلم ، ومن ميزات الدعوة الإسلامية أنها تخاطب العقل . ولك ما يدعو إليه الإسلام من العقائد والأعمال والأحكام ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ولا تأباه النفوس السليمة . ومن ناحية أخرى أن القرآن قد حدد وسائل الدعوة إليه بالبرهان العقلي والاقناع السليم ، ومنع أي نوع من الإكراه إذ صرح : ((لا إكراه في الدين)) { سورة البقرة : ٢٥٦ } وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التلبيغ المبين .

وجاء الإسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ، لم يزد في الاستدلال شيئا سوى أن أيقظ العقول ونبهها إلى النظر في آيات الله تعالى ، فجاء في وصف الحق تعالى وإثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل . ومن الآيات الواردة في ذلك : ((أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا فيه حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون { النمل – ٦٠ } . ((أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها وراسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون)) { النمل – ٦١ } . ((قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضم بعضا إلا غرورا)) { فاطر – ٤٠ } . ((وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) { الرعد – ٣ } .

ولكل من هاتين الميزتين المذكورتين تأثير في نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء فإذا دعا الإسلام إلى عقيدة أو حكم من الأحكام تجافي عن الالزامات التي لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفهام ، وكلما هم بتلقين أصل من أصوله بدأ بالمقدمات النظرية البديهية ، لأن منزل هذه الدعوة هو خالق الإنسان ومالك القلوب والأسماع والأبصار ، فلم يجعل من رسله إلا مبشرين ومنذرين . ويقول القرآن : ((فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم مسيطر)) . و((فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)) و((أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) . و((وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق)) و ((وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)) .

الفطرة السليمة :

إن دعوة القرآن وجهت أولا وقبل كل شيء إلى الفطرة السليمة للانسان ولا يدعو إلى شيء ليس في استطاعة العقل البشري أن يدركه . وبعبارة أدق وأصح أن الإسلام هو الدين الذي قوض دعائم الإيمان بغير

المعقولات ، وأقام على دعائم الإيمان اليقيني المتحصل من طريق العقل والنظر ، والقائم عند حدود المسلمات العقلية وحكم الفطرة البشرية . وأن الآيات القرآنية التالية تساعدنا على إدراك هذه الميزه الكبرى للإسلام : ((قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)) . و((قد بينا الآيات لقوم يوقنون إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا)) و ((لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)) .

وظيفة القرآن :

وخلاصة القول أن وظيفة القرآن في البشر رسم أقرب الطرق إلى الهداية وحفظ البشرية عن مواطن الهلاك فما كان ليأتي بما ينافي العقول السليمة أو يحمل للجسم مالا طاقة له به ، أو أن يفرض على الإنسان ما ليس من فطرته وطبيعته . ومن هنا أصبح الدين الإسلامي دين الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها في كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها ، وإنما الذي يختلف باختلاف ذلك هو الأحكام الفرعية ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)). و ((إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)) .

ومن فطرة الإسلام أيضا أنه صرف قلوب الناس عن التعلق بما كان عليه آباؤهم وإن كانوا في ضلال مبين . ونهاهم عن التقليد الأعمى ، فكفل الاستقلال لكل شخص في عقله وفكره وعمله ، وأعلن أن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمان والتبعية ، ولكنه فطر على أنه يهتدي بالعلم والفكر ، وعاب أرباب بعض الأديان في اقتنائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطه لهم سيد أسلافهم . ونبه أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وقد ذم القرآن هذه الظنون والأوهام إذ يحكي قولهم : ((إانا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون)) و ((بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا)) ، ثم أعلن : ((وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى))

وكذلك قوله ((ولا تزر وازرة وزر أخرى)) . وهكذا صاح الإسلام بالعقل البشري السليم صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كما نفذ إليه شعاع من نور الحق .

نتيجتان هامتان :

وتترتب على ذلك نتيجتان هامتان تنفرد بهما الدعوة الإسلامية وهما :

١ – ضمان المساواة التامة بين أفراد الجنس البشري في الحقوق والواجبات الإنسانية .

٢ – تحرير العقول البشرية من الأعباء المصطنعة التي فرضتها القوانين البشرية أو العادات والتقاليد المتوارثة .

ويؤكد القرآن الكريم فطرية الإسلام الشاملة العامة بقوله : ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)) { الروم : ٣٠ } ثم وصف النتيجة الحتمية لهذا الدين مخاطبا خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) { الأنبياء : ١٠٧ } .

وكان جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في كل زمان ومكان يدعون الناس إلى النظر في ظواهر الطبيعة المألوفة للاستدلال على صدق دعوتهم التي بعثهم الله بها ويخاطبون العقل والضمير . ويدعونهم للنظر في السنن الكونية التي تسرى في هذا الوجود .

وإذا أردنا فهم ميزة الدعوة المحمدية وجب أن نفهم المعنى الحقيقي لكلمة ‘‘ الإسلام ’’ فهما صحيحا وهي لا تحمل اسم نبي أو داعية بل يطلق عليها اسم خاص هو ‘‘ الإسلام ’’ ولا يطلق عليها اسم ‘‘ الديانة المحمدية ’’ أو ‘‘ الدين المحمدي ’’ وتفيد كلمة ‘‘ الإسلام ’’ معنى ‘‘ الانقياد ’’ التام لله تعالى والإذعان له . ويوضح القرآن معنى الإسلام الحق مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم : ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين)) { الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣ } .

نظرة الإسلام إلى الديانات الأخرى

يقرر القرآن مبدأ التسامح والمحبة الذي دعا إليه الإسلام بالآيات التالية :

١ – ((لا إكراه في الدين)) { البقرة : ٢٥٦ } .

٢ – ((ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) { يونس : ٩٩ } .

٣ – ((وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله)) { يونس : ١٠٠ } .

وجاء الإسلام من الأحكام بما يضارع في سماحته وسموه ما جاءت به الأديان جميعا وذلك في عصر همجي نسبيا يتأرجح فيه العالم بأنواع من الكروب الاجتماعية ، والحروب العنصرية والفروق الدينية .

وتتيح الشريعة الإسلامية حرية العقيدة وتكفل حرية العبادة لأهل الديانات الأخرى الخاضعين لحكم الإسلام . وكانوا المسلمون يعرضون على الناس الدخول في الإسلام ولكنهم لم يحملوهم قصرا على اعتناقه قط ، وكان دخولهم فيه يخول لهم المساواة في الحقوق مع الفاتحين . ويدل التاريخ على أن الدول والأمم المغلوبة لهم كانت تعفى من الشروط التي كان كل الفاتحين يفرضونها دائما منذ بدء الخليقة إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الأحكام الرئيسية التي تقوم عليها قوانين الحرب في الإسلام تدل على الحكمة التي تنطوى عليها النظرة الإنسانية في الإسلام فوضع القرآن هذه القوانين على القاعدة العامة : ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)) { البقرة : ١٩٠ } ((فإن قاتلوكم فاقتلوهم)) { البقرة : ١٩١ } ((فإن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين)) {البقرة – ١٩٣} ولم تتسرب روح الاعتداء والطمع قط إلى الإسلام فكان المسلمون في عز أيامهم على استعداد لأن يقولوا لأعدائهم ((لا تقاتلونا وحالفونا نكن أصدقاءكم أو ادخلوا في ديننا تتمتعوا بكل ما نتمتع به من الحقوق والامتيازات)) { انظر روح الإسلام ج٢ ص٩٢ } .

ويذهب بعض خصوم الإسلام إلى أن دخول الناس في الإسلام في معظم البلاد التي فتحها المسلمون يعد دليلا على تعصب المسلمين وإكراههم الأمم الأخرى على اعتناق الإسلام ، واستدل البعض على ذلك بدخول معظم الفرس في الإسلام حين فتح المسلمون بلاد فارس وسقطت مملكة الأكاسرة فيها .

ولكن هؤلاء الخصوم ينسون – أو يتناسون – الأوضاع التي كانت ترزح البلاد تحتها حين الفتح الإسلامي ، إذ لم يكن فيها أي أثر للدين ، فكانت عامة الناس تئنّ تحت وطأة آفتين هما من أسوأ الآفات التي يواجهها أي مجتمع إنساني ، ووأولاهما : آفة الكهنة الذين انحدروا إلى وهدة الفساد من الشعوذة والدجل والخرافات والترهات التي يمجها العقل السليم . وثانيهما : آفة حكم المترفين الذين انغسموا في أنواع من الفسق والفجور . وهكذا سرى الانحلال في جسم المجتمع من كل النواحي ، فلم يكن المسلمون يدخلون البلاد ويبشرون بدين الحكمة والأنسانية ودين القانون والنظام ، ودين المساواة والعدالة ، حتى دخل الناس فيه أفواجا ، واصطبغت بلاد فارس بالصبغة الإسلامية [راجع المصدر السابق ص : ٩٤] .

ويقول المؤرخ الفرنسي " نيبورن " في مؤلف له عن تاريخ العرب والمسلمين : " إنه لا مناص لأي دين من الأديان أن يجنح أتباعه للحرب في إحدى مراحل حياته ، وكذلك كان الحال في الإسلام . ولكن الزعم بأن المسلمين هدفوا إلى بث الدعوة بالقوة أو أنهم كانوا أكثر عدوانا من غيرهم زعم يجب إنكاره إنكارا باتا " . [نقل عن روح الإسلام ج٢ ص٩٥] . وفي وسع أي باحث أن يحلل هذه العبارة ويحكم على فحواها .

وإذا درسنا الروح السياسية لأي دين من الأديان لا نجد دينا أكثر تسامحا نحو أهل الديانات الأخرى من الإسلام ، فالإسلام يدعو دائما إلى التسامح المطلق . ويلخص هذا الجوهر في العهد الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لليهود بعد وصوله إلى المدينة . وكذلك الكتاب المشهور الذي أرسله لنصارى نجران والبلاد المجاورة بعد أن استتب الأمر للإسلام في شبه الجزيرة العربية . وقد نص الرسول صلى الله عليه وسلم . في الوثيقة التي وضعها بعد قدومه إلى المدينة على الحرية الدينية الكاملة لجميع أهل الأديان ، كما أنها تجمع شمل العناصر المتنافرة وكذلك بين فيها ما للمسلمين وما عليهم فيما بينهم ونحو الآخرين . وتعد هذه الوثيقة أول دستور مكتوب في تاريخ البشرية ينص على حرية الأديان وينظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ويكون حلفا منظما يجمع العناصر المختلفة في دولة واحدة .

وقد بشر الإسلام جميع الملل والطوائف ، باسم التوحيد للخالق الواحد والمساواة الإنسانية العامة والديمقراطية المطلقة . وكان من الطبيعي أن ينضوي المضطهدون فكريا أو اجتماعيا تحت لواء الدعوة الإسلامية التي حررت الفكر الإنساني من رق الكهنوت ووطأة الرجعية .

فرحب أحرار الفكر من جميع الديانات في العالم بمقدم الدين الذي حقق حكم التسامح الديني والعدل الاجتماعي بأوسع معانيه ، فقد دخل فريق منهم في الإسلام وآثر فريق أن يعيش في ظل التسامح الوارف الذي دعت إليه تعاليمه التي تقوم على دعامة قوله تعالى : ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)) { المؤمنون : ٥٢ } .

الإسلام يكافح الطبقية والعنصرية

" الناس سواسية كأسنان المشط " و " لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى " و " كلكم من آدم وآدم من التراب " .

بهذا المبدأ النبيل يسعى الإسلام لعلاج الأحقاد والأضغان ولتجنب الحروب والكروب في العالم الإنساني ، ويعلن أن لا سلام في العالم ولا أمن في الدول إلا بتنفيد هذه المبدأ القيم الفطري بين الجنس البشري .

وإذا ألقينا نظرة عامة على صفحات تواريخ الأمم الماضية ، وتطوفنا تطوافا سريعا حول تواريخ البلاد التي فشت فيها الأحقاد والفتن ، واشتعلت فيه نار الحروب والمحن نجد أن الثغرة الوحيدة التي تسربت منها هذه المهلكات لمقومات الإنسانية هي الفوارق الطبقية والتفاوت الشائع بين طبقات الأمة .

مثلا كانت الأمة الرومانية منقسمة إلى طبقات ، عليا وسفلى ، وحاكمة محكومة وكانت الأمم الهندية بل ولا تزال .. (مع أن الحكومة الحالية منعت الفوارق الطبقية واللونية رسميا) منقسمة إلى طبقات متفاوتة في الدرجات مثل الطبقة البرهمية والطبقة المنبوذية ، فلا يجوز التزاوج بينهما ، ولا الاختلاط مع وجود قانون رادع عن هذه التفرقة .

ومما يثير عجبنا بل ويدهشنا أن نرى هذه التفرقة غير المشروعة وهذه العقلية الرجعية منتشرة ومتغلغلة في قلوب المتزعمين للديمقراطية والعدالة الدولية ، سيما في القرن المتحضر العلماني ونسمع بآذاننا ونقرأ بأعيننا صباحا ومساء الأنباء التي ترد من عواصم البلاد المتحضرة المتزعمة للحرية من اضطهاد الزنوج باسم اللون – السواد – وتحريم المعاشرة والمكالمة والمخالطة بين إنسان أسود وبين أخيه الإنسان الأبيض مع أنه يتوافر في كليهما كل المقومات الإنسانية وميزاتها وفضائلها ! .

ومن ناحية أخرى تهتز المنابر الدولية وترتج المحافل العالمية بسبب سياسة اضطهاد الملونين في جنوبي أفريقيا باسم اللون – أما الإسلام فقد هدم بادئ ذي بدء هذه العقلية غير الإنسانية وهذه الفكرة الرذيلة الهدامة لمقومات العالم الحر والأمن الدولي من أساسها . يمهد القرآن الكريم لهدم هذه الفكرة الجاهلية والتفرقة الاستعمارية بقوله :

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

ثم يقرر الإسلام بجميع قواه أن كل إنسان لا يتجاوز دائرة العبودية لله تعالى مهما بلغ إلى حد الكمال الانساني ، ومهما أوتي من علم وقوة ومال فلا يتغلغل إلى دائرة الألوهية – والخالق هو الله الواحد القهار والمخلوقات بجميع أنواعها عبيد له ، وليس للحاكم سلطة مطلقة على المحكوم إلا تنفيذ أمر خالقهما ، وليس للمحكوم إلا تنفيذ أمره أيضا . فالحاكم والمحكوم مطيعان منقادان لحاكم أعلى وأكر منهما هو الذي يسيطر عليهما سوء بسواء وعلى هذه العقلية الفطرية والنظرية الطبيعية ، أسس الإسلام قواعده وأقام دولته ونشر دعوته ، وجعل من الأمم المتخالفة والشعوب المتخاذلة في أتفه الأمور ، المنقسمة إلى طبقات وقبائل ، ومتفرقة إلى أحزاب وشيع ، جعل منها أمة متحدة مثقفة مستنيرة متعاونة ولا تعرف المشاجرة والتطاحن والتحاسد والتباغض .

وقد آن الأوان لرجوع العالم الإسلامي أولا والعالم الإنساني كله ثانيا إلى هذا المبدأ النبيل والهدف المنشود ليتخلص العالم من الويلات والكروب والفتن والحروب فيسود الأمن والطمأنينة في بقاع الأرض وتعم السعادة والرفاهية في الجنس البشري .

التقريب بين الأمم والشعوب

لقد بدأت الأمم والشعوب اليوم تتقارب وتتعاون ويحاول بعض الساسة والقادة والزعماء في أنحاء العالم لإزالة الحواجز والوهمية : الجغرافية والسياسية ، التي أقامتها الأطماع والأهواء بعد أن تكفلت الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة بإزالة هذه الحواجز الطبيعية أيضا من بحار وأنهار وصحارى . أما الحواجز السياسية فحدود وهمية وكذلك الفروق الاعتبارية من جنسية ولونية ولغوية وثقافية وغيرها . فنحن – المسلمين – نتفق مع هؤلاء الزعماء كل الاتفاق ونتعاون معهم كل التعاون للوصول بالأمم إلى حياة ناعمة في ظلال الأمن والسلام بل ولا يسع كل محب للسلام والطمأنينة في العالم إلا أن يبارك هذه الجهود ويبذل من نفسه ونفيسه ما يقضى إلى هذه الغاية كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر لهؤلاء جهودهم فيها ولكن نرى يوما بعد يوم عراقيل في طريق هذه الهدف . وموانع في سبيل هذه الغاية ، فالتقدم بطئ جدا والطريق وعر والهدف بعيد بل يظن كثير من الناس أنهم لن يبلغوا الهدف المذكور وأن سعيهم في هذا السبيل سوف يبوء بالفشل . فإذا نظرنا بعين التحقيق والإنصاف وأزلنا الغشاوة عن الأبصار ، نجد أن العلة الوحيدة في جمود التقدم في هذا الميدان والفشل في هذا السعي ، ترجع إلى عاملين اثنين لا ثالثا لهما . هما : انعدام الاخلاص وضعف النية في التطبيق العملي من القائمين على هذه الدعوة فالإخلاص والتطبيق من أبرز العناصر لنجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف .

إن الشاهد التاريخي على ما نقول والدليل المادي لدعوانا هو الداعي الإسلامي الكبير والمصالح الإنساني الفذ ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى في صدق عزيمته والإخلاص في دعوته فأصاب هدفه وبلغ غايته خلال مدة قصيرة ، وربط بين القبائل والشعوب بروابط وخلق منها – وهي المتخاذلة المتحاربة – أمة متماسكة الأجزاء وثيقة البنيان موحدة المقاصد ، بعد أن كانت متفرقة إلى شيع وأحزاب . وغدا المسلم الهندي أخا للمسلم المصري ، والأوربي أخا للمسلم الحبشي والروسي أخا للأمريكي ، أخوة صادقة عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء ، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم نظاما رائعا في جملته وتفصيله ، وسنّ للافراد والجماعات حقوقا وواجبات على أساس من العمل والمساواة والتعاطف والتعاون وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير ، فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التنابز بالعصبيات والتباهي بالأنساب ، وأوصى بالمرأة وضعيف والفقير والمسكين واللهيف وحرم المحسوبية وحذر من سوء الظن والتجسس وتتبع العورات وإلحاق أي أذى بإنسان أو حيوان من غير حق يخوله الدستور الإلهي لإقرار الأمن والطمأنينة في المجتمع البشري .

ومن الأسس القرآنية والنبوية للتقريب بين الشعوب والأمم مهما اختلفت الحواجز الطبيعية والفوارق الوهمية بينها قول الله تعالى : ((أنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)) .

((يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكون خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .)) ((ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)) .

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم)).

ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

" الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى " .

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

" المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم " .

" كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه " .

" وكانت أفعاله عليه السلام تطبيقا عمليا لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى ضرب المثل بنفسه، فقد كان يستشير أصحابه في شئون الدولة والأمة – ونزل مرات على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك . روى عنه أنه أقبل على جماعة يوما فقاموا له إجلالا فقال :

" ولا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس " .

وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاونه المثل الأعلى ، كان يوما في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : على ذبحها ، وقال ثان : على سلخها ، وقال ثالثا على طبخها ، فقال الرسول عليه السلام : على جمع الحطب ، فقالوا يا رسول الله : نكفيك العمل ، " فقال علمت أنكم تكفونني إياه ولكنني أكره أن أتميز عليكم " .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، فهو القائل :

" والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " .

وقد نهج خلفاؤه الراشدون وأمراؤهم وحكامهم هذا النهج النبوي القويم ، فخطب أبو بكر الخليفة الأول رضي الله تعالى عنه إثر مبايعته بالخلافة :

" يا أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن احسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه نحوها . وجهز عثمان ثلث الجيش من ماله في غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية – وكذلك علي كرم الله وجهه كان إماما يسهر على صالح الرعية ورفاهيتها ، ومخلصها وصادقا في أفعاله وساسته .

وبهذا الأسلوب من الإخلاص وصدق النية في الدعوة والقول والتطبيق العملي لمبادئ الدعوة ، نجح محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه في التقريب بين الشعوب والتضامن بين الأفراد وكان نجاحه مثلا تاريخيا فذا وكان موضع الدهشة عند المؤرخين العرب والأوربيين على السواء ، وما نجحت دعوتهم إلا لأنها قامت على أساس من الاخلاص والتطبيق العملي لمبادئها .

رفع شأن جناحي الأمة

- الرجل والمرأة –

على قدم المساواة في الحقوق والواجبات

لا يكتمل نظام ولا دستور ، سماويا كان أو وضعيا بشريا ، ولا يكون عاما ولا خالدا إذا أهمل مشكلة المرأة التي تشكل نصف الأمة من غير حل مرض يتفق وفطرة الناس وطبيعة العالم . وإذا لم يضع منهاجا خاصا لها يختلف عن مناهج الرجال في بعض الأمور وفقا للفوارق الطبيعية بين جنس الرجال والنساء المتفاوتين في كثير من القدرات والخبرة والمقومات .

وإذا نظرنا إلى الدستور الإسلامي العالمي الخالد الصالح لكل زمان ومكان في ضوء التقرير المذكور نجد فيه أنه يحل هذه المشكلة حلا وسطا عادلا طبيعيا فإن الإسلام يأخذ بيد المرأة فيهذبها ويعلمها ثم يجعلها في مستوى الرجل في كثير من الحقوق الواجبات ويفرض عليها واجبات وطنية وحقوقا اجتماعية كما يفرض على الرجال سواء بسواء .

ومع ذلك فإنه يقرر الفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأة في بعض المقومات والقدرات لأنه لا يرضى بالفوضى والفتن وبالتعدي على الحدود المحددة لكلا الجنسين ، لأن كلا في دائرة تخصصه .

لهذا قرر الإسلام أن البيت هو الوطن الصغير ، والبلاد هي الوطن الكبير ، أما الوطن الصغير فيربي فيه الجيل الجديد وشباب المستقبل . فيحتم على المرأة الاهتمام بتربية الجيل الناشئ وبشئون المنزل الداخلية أكثر من الأمور العامة ، وحتم على الرجل الاهتمام بشئون خارج المنزل وشئون الدولة والأمور السياسية إلى جانب مسئوليته المسئولية الكاملة عن البيت أدبيا وماديا . لأنه يفوق المرأة طبيعيا في بعض القدرات الخارجية وفي الفرص السانحة له لإدراك مجريات الأمور والتطورات في أنحاء البلاد ولا يعوقه ما يعوق النساء من بعض الموانع الطبيعية .

ولهذا يقرر دستور الإسلام هذه الفوارق الطبيعية بينما قرر قوة وصراحة المساواة في جميع الحقوق البشرية والإنسانية بين الرجل ولامرأة .

((ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)) .

((وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، وأسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما ، وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا)) .

ثم يقول معلنا تفاوت القدرات والخبرة والقوى الطبيعية بين الجنسين في قوله :

((وللرجال عليهن درجة)) . هذا ليس في الإنسانية ولا في الحقوق البشرية ، كما يتوهم البعض أو يزعم ولهذا قرر الإسلام أن المسئولية الأولى في شئون الأمة والدولة ، والشئون المنزلية والعائلية على عاتق الرجل لا على المرأة فهو الرقيب على شئون البيت وهو المسئول الأول أمام العدالة والقضاء والمحاكم في شئون الأولاد والعائلة والمنزل لأنه لا بد لكل دستور من تحديد المسئولية في مثل هذه الأمور .

حدد الإسلام هذه المسئولية وألقاها على عاتق الرجل فقال :

((الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليما كبيرا وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا)) .

فما أبلغ هذه الآية الكريمة في تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق الإنسانية وفي الأخذ بيدها إلى مرتبة الرجل في هذا المضمار حتى اعتبرتها مواطنة كاملة – وإذا خيف بينهما الشقاق والفرقة فلا للرجل إكراهها على مالا ترضاه ، بل تنتقل المسئولية إلى قاعدة التحكيم بينهما كما صرح به في آخر الآية بقوله :

((فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهملها)) .

ثم يتوجه الإسلام إلى إقرار الأمن والطمأنينة في البلاد وقمع الفتن والشهوات البهيمية ومنع الفوضى وانحلال الأخلاق – لأن الإسلام مجموع قوانين فطرية – فطرة الله التي فطر الناس عليها – فلا يوجد نزاع ما بين طبيعة العالم والإنسان ، وبين قوانين الإسلام ومبادئه ، وأن مهمته الرئيسية حث الناس على احترام الفطرة الإنسانية والطبيعية العالمية وإبعادهم عن مخالفتها وإنكار مخالفيه ثم تنبيه العقول الضعيفة إلى مبادئ النواميس الطبيعية ودواعيها فينظم الأمور ويرتبها حفظا على النظام وتجنبا للفوضى ، ومن الطبيعي الإنساني القوة الجاذبية بين جنس البشر – الرجل والمرأة – فينشأ عن الاختلاط غير

المشروع وبلا نظام بين الرجل والنساء فساد الأخلاق وسوء النظام سيما في العناصر الفاسدة ذات الاعوجاج الخلقي والانحطاط الثقافي لسوء التربية أو قلتها أو عدمها .

لهذا حرم الإسلام على الرجال الاختلاط مع الأجنبيات إلا عند الضرورة ، كما حرم على النساء التبرج والسفور والاختلاط المشبوه مع الأجانب ، ليفرغ كل لعمله المخصص له . ويستقر في مكانه المعين له ، ولأداء مهمته الخاصة المحددة – وبهذا يتم الأمن وتجري الوظائف والمهمات ، في الداخل والخارج ، في استقرار وهدوء ، ويحول دون التهترات والفوضى . وبين دستور الإسلام آدابا هي جزء من الفطرة التي فطر الناس عليها : لصيانة الأعراض فيشير القرآن إلى ذلك :

((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني أخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذي لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) { سورة النور } .

والمراة في نظر الإسلام ليست أقل في وطنيتها وجهادها في سبيل الأمة والوطن والإسلام من الرجل، كل فيما يخصه من إعداد الجيل الجديد وشباب المستقبل من دائرة البيت ومن السهر على التدابير المنزلية والعائلية بما يتفق ومصلحة الوطن والأمة حينما يعمل الرجل في ميدان الجهاد وساحة المعارك في خارج البيت أو خارج الوطن . وكذلك يجب على المرأة أن تتمرن على إسعاف الجرحي من المحاربين والمرضى من أبناء الوطن وبناته بطريقة جائزة بمقتضى دستور الإسلام ، لذا نرى السيدات المجاهدات يشتركن على قدم المساواة في خدمة الوطن والملة ، وفي ميدان الجهاد والكفاح مع الرجال ، ولكن كل في دائرة تخصصه ، تجنبا للفوضى وتسهيلا للأمور وتذليلا للعقبات ورأفة بالمجاهدين والمجاهدات – فإن للسيدات الباسلات المكافحات لأسوة حسنة في العديد من صواحب رسول الله ، وهن كثيرات ، لا سيما الخنساء التي أعدت أبناءها الأربعة للنزول إلى ميدان القتال مع كامل العدة والقوة – فكانت تنتظر نتيجة رحى الحرب فلما وصل إليها خبر مقتل هؤلاء الأبناء الأربعة في ساحة القتال حمدت الله تعالى على هذا الشرف العظيم .

تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس

إن الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي يسري في هذا الزمان إلى كل ناحية من نواحي الحياة البشرية وفي كل بلد من البلدان وفي كل طبقة من الشعوب والأمم ، هذا ما نقرأه صباحا ومساء من الأنباء ،

ونلمسه كل وقت من آثاره ، كان الناس قد أصبحوا اليوم ولا هم لهم إلا تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم سواء أكانت خيرا أم شرا باطلا أو حقا ، ولم يعد هناك عاصما يعصمهم من السير في هذه الطريق الوعرة ما داموا قادرين على التماس الوسائل واتخاذ الحيل ومخادعة القوانين والنظم بتأويلها أو الأزورار عنها ، وقد ساءت الحال في العالم الإنساني اليوم بقدر أن امتلأت – أو تكاد – قلوب المصلحين وأذهان الخادمين المخلصين لمصلحة الإنسانية عامة يأسا وقنوطا من صلاح الأحوال واستئصال أسباب الفساد والانحلال .

وقد آن الأوان لأن يفهم القادة العالميون والزعماء المصلحون أنه لا صلاح لهذا النوع الإنساني ولا حل لهذه المشكلة الاجتماعية والجرائم الخلقية إلا بتقوية الطاقة الروحية والوازع الديني في البشر ، وهذا هو الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب ويقيم حارسا على كل إنسان من نفسه ، لأن القوانين تخادع وتغالب ويمكن الإفلات من سلطانها إذا لم تكن الروح الدينية مسيطرة على الإنسان وخشية الرب الذي خلقه ورزقه تملأ قلبه والثقة بعدله والإيثار برضاه والاستحياء من أن يراه عاصيا له خارجا على أمره فإن الحل الوحيد لهذه المعضلات النفسية والخلقية والاجتماعية هو تقوية الوازع الديني في القلوب والإيمان بالله والآخرة فتصادر نوازع الفساد والشرور وتغرس بذور الخير والصلاح .

ومما هو جدير بالإشارة إليه ههنا – أن المعارف المشوهة والصور الظاهرية التي يعرفها كثير من الناس عن الأديان قد سعت لإبعاد الناس عن الروح الديني سيما في العناصر الفاسدة والقلوب الضعيفة والعقول الجامدة ، كما قيل : إن المعرفة الناقصة المشوهة شر من الجهل ، لهذا يدعو الإسلام النوع الإنساني كله إلى معرفة مبادئه وأحكامه من كتابه المقدس السماوي ، ومن بيان رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، معرفة صحيحة ويرغبهم إلى إدراك ما فيه من خير وجمال باستعمال العقول والأفكار الموهوبة لكل إنسان لأنهم إذا عرفوه أحبوه وإذا أحبوه أجلوه وعظموه فيحرصون على أن يصدروا في أفعالهم وأحوالهم عن تعاليمه القويمة ومبادئه الصالحة – ثم يخوف الناس ويبعدهم عن الهروب وراء الأوهام والأضاليل والآراء الضارة والتقاليد العمياء :

((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل)) .

ومما لا ريب فيه اليوم ، أن رجاء كل مفكر مصلح خادم مخلص لصالح العالم الإنساني ، ومن كل زعيم معني بشئون الأمة ومصلحتها ، ومن كل قائد يتولى أمور الأمم والشعوب الإسلامية أن يوجه عنايته السامية نحو نشر مبادئ الإسلام الحقة وأحكامه الصحيحة في المجتمع البشري ليقف على محاسنها المسلمون وغيرهم من مختلف الأمم والشعوب في أقطار العالم سيما في هذا العالم الذي يعيش في مشاكل ومعضلات وعوامل وتيارات شتى بحيث لا يعرف أحد نتائجها الوخيمة إلا الله المهيمن على مقاليد الأمور.

إن النفس الإنسانية لمطبوعة على أصناف من اللؤم والقبح ومستعدة دائمة لتقبل ما يوحى به هواها وشهواتها . ولهذا نجد ، إذا تصفحنا صفحات التشريعات السماوية أو الأرضية الصالحة ، أن أول أهدافها تطهير النفس من أهوائها ، وتنظيفها من نزعات الشر والملكة فيها ، لأن المجتمع لا يتكون إلا بأفراد قلة فلا يصبح ذلك المجتمع صالحا إلا إذا كان أفراده صالحين والفرد لا يكون صالحا حتى يكون أعظم أهدافه وأسمى أغراضه العدل والإنصاف وحب الخير للآخرين والرغبة في إنهاض الأمة والمساعدة على الحياة الكريمة لبلاده ولقومه وللنوع الإنساني كله .

فالإنسان في حاجة ماسة إلى إرادة قوية تعصمه من الزلل وتحول بينه وبين الخضوع لما تميله عليه نفسه الأمارة بالسوء . ولما قيل لعمر بن عبد العزيز أي الجهاد أفضل ؟ قال : " جهادك هواك " . فإن الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه . وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

' ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " .

فلا نجاة لهذا العالم الزاخر بالتقلبات الملئ بالفتنة والفساد والحروب والكروب إلا بنفوس طاهرة من الأهواء النفسية وخالية من الأغراض الذاتية ، وعاملة لصالح البشرية كلها ، تؤثر المصالح العامة على المصالح الذاتية والأطماع الشخصية الهدامة ثم تتولى مقاليد حكم العالم هذه النفوس المخلصة الطاهرة ، فتصل سفينة العالم الإنساني الحائر بين العواصف والتيارات إلى شاطئ الأمن والسلام .

إن كلمة " العمل الصالح " كلمة جامعة شاملة لمعان كثيرة ، ومزايا عديدة ، وحقائق جمة ، لقد صرح القرآن الكريم والأحاديث النبوية في عدة مواضع بأن الإيمان وحده لا يكفي لنيل الفوز والنجاح في الدارين ولافوز بمرضاة الله تعالى ، والإقرار الأمن والطمأنينة في العالم ، ولكن لا بد مع الإيمان العمل الصالح – العمل الصالح لله عز وجل ، ولنفسك ولوالديك ولأقاربك ولقومك ولوطنك وللعالم الإنساني كله- لأن الإيمان لمنشأ والعمل الصالح لمظهر ، ولا يوجد المظهر بدون المنشأ ، وكذلك يلزم مظهر لكل منشأ .

ومن هناك كانت الأعمال الصالحة في كل معانيها ومظاهرها لازمة للفوز في الحياتين وواجبة لإقامة العدالة الإنسانية في الجنس البشرى ، ولهذا لا نجد آية من القرآن تتحدث عن الإيمان والعقائد إلا وهي مقترنة بالعمل الصالح .

((والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) .

((والتين والزيتون ، وطور سنين وهذا البلد الأمين , لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم آجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين)) .

ومن السذاجة البديهية الاكتفاء بالإيمان والعقيدة فقط للوصول إلى الأهداف التي تتطلبها هذه العقيدة ، وهذا الإيمان بدون العمل الصالح – بموجب تلك العقيدة والإيمان – فتبين لنا مما سلف أن العمل الصالح هو السبب الوحيد لإنجاح مطالب الإنسان وللوصول إلى أهدافه النبيلة .

إن الإسلام دين العمل والعقيدة ، فيوجب على كل إنسان أن يعمل لصالح غيره ، كما يعمل لصالح نفسه – وتظهر هذه الحقيقة السامية وهذا المبدأ النبيل في جميع تعاليم الإسلام ، يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

" الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه " فهل يصبح مؤمن مؤمنا كاملا في نظر الإسلام إلا إذا كان عاملا لصالح أخيه الإنسان كما يعمل لنفسه ؟ فيا حبذا لو تغلغلت هذه العقيدة في قلب كل إنسان فلا تباغض ولا تحاسد ولا تقاتل فنرى حينذاك عالما إنسانيا متكاملا متساندا – فما أسعد هذا العالم الأخوى المخلص !! وما أشقى ذلك العالم الإنساني المتباغض المتحاسد المتحارب ! .

وبهذا التعليم المتسامي يضع الإسلام حلا فاصلا للكثير من مشاكل العالم التي تنبعث من المطامع الشخصية والتكالب البهيمي في سبيل حطام الدنيا فهو يدعو العالم إلى المبدأ النبيل لحل معضلات الجنس البشري كلها . المبدأ الذي يتطلب من كل فرد أن يعمل لصالح كل إنسان كما يعمل لنفسه ، بل ينصح بالإيثار ولو كان به خصاصة ، ثم يعلن أنه لا حل لهذه المشاكل المنتشرة في العالم الحائر ، إلا بتقوية الإيمان الصحيح في القلوب والعمل الصالح لنفسه ولوطنه ولقومه . . في حدود مبادئه ومعانيه – فيصبح العالم الإنساني كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تشاركه سائر الأعضاء في آلامه وآماله .

تربية الشباب على المثل العليا

إن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشباب في نظر الإسلام ، هو تقوية الطاقة الروحية فيه، والتدين ، أساسه الإيمان بخالق الكون وبقضائه وقدره ، والإيمان بالآخرة والحياة الأخرى . فإن هذه التربية تربي فيه الاعتماد في الشدائد على الله سبحانه وتعالى مع الجد ، والمثابرة وطرح الدعة والتواكل، تجعل منه رجلا مطئن القلب ، ساكن النفس يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه ، بعد إعداد الوسائل والعمل لها ، على معونة الله عز وجل وتوفيقه .

والقوة الروحية والتدين والإيمان بالله تغرس في الشباب كثيرا من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطنا عاملا في بناء أمته والنهوض بها ودفعها إلى مراتب العزة والسؤدد لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم ، وتغرس في نفسه الشجاعة والاخلاص والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز لكي يغرس في نفسه احترام حقوق الغير والمحافظة على أموالهم وأعراضهم وكذلك لا بد من الاعداد العلمي والدراسات الشخصية والاختبارات العلمية للاحداث والشخصيات ليستطيع بذلك كله أن يواجه الحياة وهو مسلح بصير بأحوالها خبير بشئونها .

وإذا نظرنا إلى تاريخ عصور الإسلام الأولى نجد أن الشباب المسلم ، فتيانه ، وفتياته ، لعبوا دورا هاما في نشر الدعوة الإسلامية ورفع ألويتها وإنهاض الأمة المحمدية . ونجد أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانه بفكرته واستعذابه الألم في سبيل رفعتها ونجاحها كل هذا وذاك بفضل التعاليم القرآنية والتربية النبوية في إعداد الشباب إعدادا صالحا كاملا ماديا وروحيا – ولما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه اتفقت على قتله ليلة الهجرة فأمر عليا رضي الله عنه أن ينام في فراشه بدلا منه ليخدع قريشا ، فقبل عليا الشاب وهو يعلم أن القتل سيكون قاب قوسين منه أو أدنى ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة ومضحيا بها في سبيل الله ورسوله . فنجا النبي صلى الله عليه وسلم وانتشرت الدعوة الإسلامية . وكذلك أسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر به الخطاب رضي الله عنه وهي دون العشرين . وكانت تكتم إسلامها منه لشدته ، فلما علم بذلك دخل عليها وقال : " بلغني أنك صبأت " ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكت وقالت له : " أتضربني يا عدو الله لأني اوحد الله ، لقد اسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل " . وفكر عمر فيما فعل وندم عليه . وما زال به تفكيره حتى قاده إلى حظيره الإسلام وكان إسلامه عزة للاسلام وخطوة مشرفة في تاريخه . فحسبنا هذان المثالان دليلا على قدرة تعاليم الإسلام في إعداد الشباب اعدادا صالحا . إن أول هدف من أهداف التربية الإسلامية هو تطهير النفس من أهوائها وتنظيفها من نزعات الشر لأن المجتمع لا يتكون إلا بأفراد صالحين والفرد لا يكون صالحا حتى يكون أهم أهدافه وأسمى أغراضه العدل والإنصاف وحب الخير للآخرين والرغبة في إنهاض الأمة والمساعدة على الحياة الكريمة لبلاده ولقومه وللنوع الإنساني كله .

فإن الهوى لا يأتي بخير أبدا فالإنسان في حاجة ماسة إلى إرادة قوية تعصمه من الزلل وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الأمارة بالسوء . ولما قيل لعمر عبد العزيز : أي الجهاد أفضل ؟ قال: جهادك هواك ، فإن الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه . وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام " ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " .

إن الشباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وزعماء البلاد ومن ستصبح في أيديهم مقاليد الحكم ومفاتيح الأمن والسلام العالميين ، لذلك كانت مسئولية الشباب ذات أعباء جسام . ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال في الشباب المسلم كما يجب أن يكون :

" المسلم المثالي هو الذي يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وعقيدته وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام بتوحيده الخاص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة وبين أهل الإثرة والأنانية بزهده وإيثاره ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال يؤمن بالحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتحول " .

هذا الشباب المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ويملي عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وحامل العلم اليقين فليس مقامه التقليد والاتباع بل مقام الإمامة والقيادة . ويقول شوقي مخاطبا شباب الأمة :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا إن الحياة عقيدة وجهاد

خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام

جاء الإسلام بنظام اجتماعي يقوم على قواعد المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، ويتسم هذا النظام بالبساطة والدقة ، حيث لا يكلف الإنسان أن يطيع أمرا يتعذر عليه تنفيذه أو إدراكه . وأن هذا النظام لا يعترف بامتيازات خاصة لأحد على أساس الحسب والنسب أو اللون أو الجنس أو الشرف المتوارث ، وكذلك لا يعترف بنظام الطبقات . فالأبيض والأسود والحاكم والمحكوم كلهم يتمتعون بالمساواة التامة نظريا

وعمليا ويختلط بعضهم ببعض دون تحفظ أو ازدراء في الحقول أو في المصانع أو في البيوت أو في القصور أو في المساجد أو في المدارس .

حالة العرب وقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم :

في وقت البعثة المحمدية كانت حالة الجماهير في الشرق والغرب تدعو إلى الرثاء . فلم يتمتعوا بأي حقوق مدنية أو امتيازات سياسية . إذ كانت هذه الحقوق وتلك الامتيازات وقفا على الأغنياء والأقوياء أو الأشراف الوارثين أو بعض رجال الدين ، فكان الفلاحون والفقراء بصفة عامة يعانون الاستبداد والاستغلال من أصحاب الأراضي وذوي السلطة والنفوذ . حتى جاء رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فنفخ في بوق الحرية وأعلن المساواة العملية بين البشر وألغى الفروق بين الطبقات وحرر الكادحين فاهتم الإسلام قبل كل شيء بمبدأ الوحدانية الإلهية والمساواة البشرية وهما المبدآن اللذان دعا إليهما الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد منح الإسلام الضمير الإنساني أوسع قدر من الحرية ولذلك فحينما ظهرت الدعوة الإسلامية التي تحمل لواء الحرية والمساواة رحبت به الجماهير الشعبية باعتبارها بشير الحرية والتخلص من الظلم الاجتماعي ، إذا كانت تكفل لهم المساواة العملية أمام القانون :

وكان الناس في كل مكان يستقبلون المسلمين بوصف كونهم محررين لهم من الظلم والاضطهاد والاستغلال والكبت ، وإذا صادفت الدعوة الإسلامية أية مقاومة فكانت من طبقة الإعيان الاقطاعيين والكهنة الاستغلاليين . أما الجماهير والطبقات العاملة بوجه عام فقد انضوت تحت لوائها فإن مجرد النطق بالشهادتين يجعلهم جميعا على قدم المساواة فكان انضواء بلاد فارس والشام والروم ومصر تحت لواء الإسلام بشير النجاة لأهلها بعد أن كانوا يعيشون في وطأة ألوان من الامتيازات السياسية والقبلية وتناحر الرؤساء الاقطاعيين الجبابرة ، فتنسمت هذه الشعوب نسيم الحرية ، والعدالة تحت سلطان الأخوة الانسانية العامة التي كانت – ولا تزال إلى الأبد ، شعار ذلك الدين الجديد ، فسعد هؤلاء القوم بنعمة الأمن والسلام في ظل الإسلام .

الناس في نظر الإسلام سواء :

ومما يدل على المساواة المطلقة بين الناس في الإسلام ما وقع في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أن جبلة بن الأيهم ، ملك بني غسان قدم بعد إسلامه إلى المدينة لمبايعة أمير المؤمنين ودخلها في جلال وأبهة ، فلما انتهى إلى عمر رحب به وأدنى مجلسه ، وبينما كان جبلة يطوف بالبيت إذ وطئ إزاره رجل من السوقة فانحل فالتفت إليه جبلة مغضبا ولطمه لطمة كشر بها ثناياه فذهب الرجل إلى عمر

مستعديا على جبلة ، فبعث إليه فاتى ، فسأله عمر ما هذا ؟ فقال جبلة : إنه تعمد حل إزاري ولولا حرمة البيت لقتلته ، فقال له عمر : قد أقررت فإما أن يعفو عنك وإما أن أقص منك ؟ فقال : أيقتص منى وأنا ملك ، وهو رجل من السوقة ؟ فقال له عمر : قد شملك وإياه الإسلام !

ومما يدل أيضا على أن الإسلام لا يفرق بين الناس بسبب السلالة أو اللون أن أول مؤذن في الإسلام كان عبدا حبشيا .

الإسلام والمرأة :

وأن الشريعة الإسلامية قد نصت على احترام المرأة ومساواتها مع الرجل في بعض مرافق الحياة البشرية . ولقد اعترف كل كاتب نزيه ومؤرخ منصف في كل زمان ومكان بما حققه الإسلام من إصلاح حال المرأة ورفع شأنها . كما لا يخفى على من له إلمام بالأحكام التي وردت في كتب الفقهاء المسلمين . ما أعطاه النظام الإسلامي من مركز قانوني أفضل وأحسن من مركز المرأة القانوني في أي مجتمع راق في أوربا أو غيرها . وأرى من المستحسن أن نلقى نظرة سريعة على بعض أحكام الشريعة الإسلامية بشأن النساء حتى يتبين فضل النظام الاجتماعي الإسلامي على إصلاح حال المرأة وعلى الإنسانية جمعاء.

إن الشريعة الإسلامية تمنح المرأة كافة الحقوق التي يتمتع بها كل رجل كامل الأهلية . فتشترك مع إخوتها الذكور في ميراث أبويها .

وإذا كان حظ الأنثى يختلف عن حظ الرجل في بعض حالات الإرث فمرد ذلك إلى اختلاف الوضع الاجتماعي وإلى الفرق في مسئولية الإشراف على الاسرة ، وتدبيرها ، بين الرجل والمرأة .

وإذا تزوجت المرأة فلا تفقد شخصيتها وحريتها ، بل تظل فردا مستقلا من أفراد المجتمع لأن عقد الزواج لا يكسب الرجل سلطانا على شخص زوجته أكثر مما تقرره الشريعة ، ولا على مالها وأملاكها وحقوقها . والزواج في الإسلام إجراء مدني لا يحتاج إلى تقديم طقوس خاصة ولا إلى وساطة كاهن والمرأة الرشيدة حرة التصرف في أموالها ومكاسبها التي تجنيها بجهودها الخاصة بدون تدخل الزوج أو الأب .

ولها أيضا الحق الكامل لأن ترفع دعوى على مدينيها أمام القضاء باسمها دون حاجة إلى توكيل أحد، ولا يسمح الإسلام حتى لأبيها . وخاصة من ينوب عنه بتزويج المرأة الرشيدة إلا بإذنها الصريح ، وقد وجه الإسلام بهذا المبدأ ضربة رادعة إلى العادة الشائعة في العالم قرونا طوالا بين الملوك والحكام ، إذ كانوا يجبرون المرأة على الزواج من رعاياهم .

ويقول الكاتب الإسلامي السيد أمير على (روح الإسلام ج٢ ص١٣٧) في معرض الكلام عما حققه النبي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من إصلاح حال المرأة : " إن هذا النبي جدير بشكر الإنسانية ، ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يفعل ما هو أكثر من ذلك لما كان هناك نزاع في أنه صاحب الفضل على الإنسانية ، وإذا نحن أخذنا بالأحكام التي وردت في كتب الفقهاء كما هي , حق لنا أن نقول أن مركز المرأة القانوني في الإسلام أفضل من مركز أختها الأوروبية .... " .

وجدير بالذكر أن جميع الحقوق الخاصة بالمرأة باعتبارها إمرأة وزوجة ، وأما وأختا مكفولة لها ، بنص القرآن ، ولا بمقتضى المجاملات العرفية أو بالاجتهادات الفقهية ، وأما تأخرها النسبي فليس نتيجة للنظام الإسلامي ولا للقواعد التي وضعها الفقهاء المسلمون في ضوء ذلك النظام ، بل هو نتيجة للجهل المنتشر في المجتمع الإسلامي في العصور الأخيرة . وابتعاد المسلمين عن تعاليم الإسلامية الحقة .

وهذه نظرة سريعة إلى بعض خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام من جهة تنظيمه لسلوك الإنسان مع أخيه الإنسان ، وإرشاده إلى الحقوق والواجبات الإنسانية الأساسية التي يتمتع بها كل من جناحي المجتمع الإنساني ، أي الرجل والمرأة ، وكذلك تأثير هذا النظام في الأمم والشعوب لا في الأفراد فحسب بل في الإنسانية جمعاء .

دعائم الدولة الإسلامية

قامت الدولة الإسلامية على النظام الاجتماعي القرآني الذي هو قوام كل دولة حية وكيان كل حكومة جادة سائدة . وأهم تلك القواعد :

١ – الإيمان بوجود خالق الكون وبقدرته وبتصرفاته .

٢ – التسامي بالنفس الإنسانية .

٣ – تقرير عقيدة الدار الآخرة والثواب والعقاب فيها .

٤– إعلان الإخوة بين الناس كلهم .

٥ – النهوض بالرجل والمرأة معا والتكافل والمساواة بينهما .

٦ – تحديد مهمة كل منهما تحديدا دقيقا .

٧ – تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة والملك والعمل والصحة والحرية والعلم والأمن لكل فرد وتحديد موارد الكسب .

٨ – ضبط الغريزتين : غريزة حفظ النفس وحفظ النوع وتنظيم مطالب الفرج والفهم .

٩ – الشدة في محاربة الجرائم الأصلية .

١٠ – تأكيد وحدة الأمة والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها .

١١ – إلزام الأمة الجهاد في سبيل مبادئ الحق التي جاء بها هذا النظام .

١٢ – اعتبار الدولة ممثلة لفكرة وقائمة على حمايتها ومسئولة عن تحقيق أهدافها في المجتمع الخاص وإبلاغها إلى الناس جميعا .

على هذه القواعد قامت الدولة الإسلامية الأولى تؤمن بها إيمانا عميقا وتطبقها تطبيقا وتنشرها في العالمين حتى كان الخليفة الأولى يقول : " لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله " . وحتى أنه ليقاتل مانعي الزكاة ويعتبرهم مرتدين لهدمهم هذا الركن من أركان هذا النظام وهو يقول " والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم حتى أستمسك السيف بيدي " . وكانت الوحدة بكل معانيها ومظاهرها تشمل هذه الأمة الناشئة فالوحدة الاجتماعية شاملة بتعاليم القرآن ولغة القرآن والوحدة السياسية شاملة في ظل امير المؤمنين وتحت لواء الخلافة في العاصمة ولم يحل دونها أن كانت الفكرة الإسلامية فكرة لا مركزية في الجيوش وفي بيوت المال وفي تصرفات الولاة وأن الجميع يعملون بعقيدة واحدة وبتوجيه عام متحد.

ولقد طاردت هذه المبادئ القرآنية الوثنية المخرفة في جزيرة العرب وبلاد الفارس فقضت عليها وطاردت اليهودية الماكرة فحوتها في نطاق ضيق وصارعت المسيحية حتى انحسر ظلها في قارتي آسيا وأفريقيا وانحازت إلى أوروبا في ظل الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية . تركز السلطان الروحي والسياسي للدولة الإسلامية في القارتين العظيمتين وألحت بالغزو على القارة الثالثة تهاجم القسطنطينية من

الشرق وتحاصرها حتى يجهدها الحصار وتأتيها من الغرب فتفتح الأندلس وتصل جنودها المظفرة إلى قلب فرنسا وعلى شمال وجنوب إيطاليا وتقيم في غرب وأوروبا دولة شامخة البنيان مشرقة بالعلم والعرفان ويتم لها بعد ذلك فتح القسطنطينية نفسها وحصر المسيحية في هذا الجزء المحدود من قلب أوروبا وتمخر الأساطيل الإسلامية عباب البحرين الأبيض والأحمر فيصير كل منهما بحيرة إسلامية وتقبض قوات الدولة الإسلامية بذلك على مفاتيح البحار في الشرق والغرب وتتم السيادة البرية والبحرية .

كيف تسربت عوامل التحلّل

إلى كيان العالم الإسلامي ؟

ثم أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة الإسلامية (القرآنية) عوامل التحلل وتعظم وتنتشر وتقوى شيئا فشيئا حتى مزقت هذا الكيان وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية وتركت ورائها في كلتا المرتين أمما مبعثرة ودويلات صغيرة تتوق الى الوحدة وتتوثب للنهوض. وكان من أهم عوامل التحلل التي كانت ضاربة على الدولة الإسلامية وسيادتها العالمية – بل هي تكون عوامل التحلل في كيان كل دولة وفي كل شعب وفي كل زمان ومكان :

١ – الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك ، والتزهيد في الإمارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول : ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)) .

٢ – الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لاروح فيه ولا حياة وإهمال كتاب الله وسنة الرسول والجمود والتعصب للآراء والأقوال والجدل والمناظرات والمراء وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي حتى قال رسول الإسلام " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل " .

٣ – الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات حتى أثر عن بعض الحكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم مع أنهم يقرءون قول خالق البشر ((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)) .

٤ – إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون واقتناء أسرار الخلق والسير في الأرض ويأمرهم لأن يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض .

٥ – الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة ولقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة واعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل .

٦ – الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم والمحافظة على مقوماتهم .

٧ – انتقال السيادة والسلطة والرياسة إلى قوم لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن ولم يجعلوا الدولة وسيلة إلى الإسلام بل جعلوا الإسلام وسيلة للدولة ولنيل أغراضهم الذاتية مع أن القرآن – دستور خالق البشر – يعلن أن الإسلام غاية والدولة وسيلة ولا عكس .

لما أخذت عوامل التحلل والضعف في كيان العالم الإسلامي والدولة الإسلامية ، وظنت الأمم الموتورة أنه قد سنحت الفرصة لتأخذ بثأرها وتقضي على هذه الدولة الإسلامية التي فتحت بلادها من قبل وغيرت معالم أوضاعها في كل شئون الحياة انحدر التتار كالسيل الدافق على الدولة الإسلامية وأخذوا يقطعون أشلاءها جزءا جزءا حتى وصلوا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئوها بنعالهم في شخص الخليفة لأول مرة ، وتفرقت الأمم إلى دويلات صغيرة فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ، ومنبر . وهذه الحادثة قد صرفت مجرى التاريخ الإسلامي ، وفي الوقت نفسه تنهبت المسيحية في اوروبا وجمعت جموعها ، وشرعت الحرب الصليبية ، وتمكنت هذه القوات الصليبية من إقامة دولة صليبية في بيت المقدس ، وعما قليل تجمع فلول بعض هذه الدويلات بقيادة صلاح الدين الأيوبي فاستطاعت أن تستعيد منهم بيت المقدس ثم وقفت في وجه التتار بقيادة الظاهر بيبرس وردتهم على أعقابهم ثم عادت رسم الخلافة من جديد وقامت للإسلام دولة وارفة الظلال قوية البأس تجمع كلمته أهله ، وتضم تحت لوائها أممه وشعوبه ويأبى لها علو الهمة ، وفتحت القسطنطينية وامتد سلطانها إلى قلب أوروبا حتى يصل فينا ، تلك هي الدولة العثمانية .

اطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها واستنامت إليه وغفلت عن كل ما يدور حولها ولكن أوروبا التي اتصلت بأضواء الإسلام غربا بالأندلس وشرقا بالحملات الصليبية تحت لواء الفرنجة ، واستطاعت بعد ذلك أن تعيد تيار الحركة الإسلامية في الغرب وأن تبث الدسائس بين صفوف مسلمي الأندلس وأن تضرب بعضهم بعضا وما زالت أوروبا تتقوى وتفكر وتتعلم وتجوب البلاد وتكشف

الأقطار حتى كان كشف أمريكا عملا من أعمال " أسبانيا " وكشف طريق الهند عملا من أعمال "البرتغال " وتوالت فيها صيحات الإصلاح ونبغ فيها كثير من المفكرين الكبار وأقبلت على العلم الكوني والمعرفة المنتجة المثمرة وانتهت بها هذه الثورة الإصلاحية إلى تكوين القوميات وقيام دول قوية جعلت هدفها جميعا أن تمزق هذه الدولة الإسلامية التي قاسمت أوروبا واستأثرت دونها بأفريقيا وآسيا وتحالفت هذه الدول الفتية على ذلك أحلافا رقت فيها إلى درجة القداسة في كثير من الأحيان .

فامتدت الأيدي الأوروبية بحكم الكشف والضرب في الأرض والرحلة إلى أقصى آفاقها البعيدة إلى كثير من البلدان الإسلامية الناشئة كالهند وبعض الولايات المجاورة لها . إذا تجمعت أسباب الدولة في أية دولة من الدول فهي دولة تستحق الحياة والنهضة وكذلك إذا تجمعت أسباب الأمة الحية في أية أمة من الأمم فهي أمة حية . ثم أخذت هذه الدول الأوربيية تعمل للوصول إلى تمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة وجعلت شعارها السائد " فرق تسد " وأخذت تصنع لذلك مشروعات كثيرة تعبر أحيانا بالمسألة الشرقية وأخرى باقتسام تركة " الرجل المريض " وأخذت كل دولة تنتهز الفرصة السانحة وتنتحل الأسباب الواهية وتهاجم الدولة الوادعة اللاهية فتنقص بعض أطرافها وتنقص جانبا من كيانها واستمرت هذه المهاجمة أمدا طويلا انسلخ فيه عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار الإسلامية ووقعت تحت السلطان الأوروبي وكان الدور الختامي في هذا الصراع الحرب العالمية العظمى الأولى سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ التي انتهت بهزيمة تركيا وحلفائها وبذلك سنحت الفرصة الكاملة لأقوى شعوب أوروبا : انجلترا وفرنسا – وإلى جوارها إيطاليا ، فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه ، وبسطت سلطانها عليها في أسماء مختلفة من " احتلال " و" استعمار " و" وصاية " و" انتداب " .

النهضة الجديدة في العالم الإسلامي

لقد كان أهم ظواهر المدنية الغربية :

١ – الالحاد والشك في وجود صانع العالم وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروى والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس .

٢ – الاباحية والتهافت على الملذات وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والاغراق في الموبقات .

٣ – الأثرة في الأفراد فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه .

٤ – انتشار الربا في كل المعاملات والمتبادلات قاعدة التعامل فكان نتائج هذه الظواهر أولا : فساد النفوس وضعف الأخلاق . وثانيا : ظهور المبادئ الهدامة والطوائف المتطرفة . وثالثا : اضطراب الأخلاق والنظم الاقتصادية والاجتماعية . ورابعا : تمزيق الدول بالطوائف والأحزاب . وخامسا : تناحر الشعوب على المطامع والأحقاد .

فشلت في إسعاد الناس وإقرار الطمأنينة والسلام في العالم رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وأسباب الغنى والثروة وأشربت هذه الظواهر في قلوب الأمم والشعوب وانتصرت على الحضارة الإسلامية كما انتصرت في الميدان العسكري والسياسي ولا عجب في ذلك فإن مظاهر الحياة لا تتجزأ والقوة قوة فيها جميعا والضعف ضعف فيها جميعا . وإن كانت مبادئ الإسلام وتعاليمه ظلت قوية في ذاتها وستظل كذلك ولن تقوم الحياة الإنسانية كاملة فاضلة بغيرها لأنها من صنع الله تعالى وفي حياطته مع أن العبودية الفكرية أسوأ من العبودية السياسية وكان العالم يكتنفه الظلام والإنسانية تقف ممزقة بين قوى الرأسمالية والشيوعية المتنازعة التي تنقصها جميعا الأسس الروحية والأخلاقية التي هي وحدها تجعل للحياة معنى واستقرار .

إن هذا العدوان الصارخ والاستهتار بالعهود والمواثيق أحرج الصدور وأثار النفوس فهبت الأمم تطالب باستقلالها وثارت تركيا ومصر ولبنان وسوريا والعراق وإيران والهند وأندونيسيا وكثير من البلاد العربية ومع ذلك خرجت الدول الأوروبية من الحرب العالمية وبذور الحقد والبغضاء متأصلة في صدور الكثير منها وجاء مؤتمر الصلح ومعاهداته لطمات قاسيات لبعضها وخيبة لكثيرة منها ، هذا إلى ظهور كثير من الفكر الجديد والمبادئ المتعصبة ولا بد أن تنتهى هذه الحال بهذه الأمم إلى خلاف جديد وحرب طاحنة تبدد شملهم وتمزق وحدتهم وتعيدهم إلى رشدهم وتردهم عن ظلمهم .

وكان طابع القرن التاسع عشر في الغرب بل في العالم كله طابعا ماديا بحتا فهو لا يؤمن إلا بالمادة وما ليس ماديا إلا وهما ، ونتيجة هذا أن القيم الأخلاقية والدينية والفنية في نظرهم ليست إلا أمورا اعتبارية لا حقيقة لها . وقدس علم الطبيعة والكيمياء وتحول علم النفس إلى المادية فكل مظهر من مظاهر النفس من أفكار وبواعث ليس إلا نتيجة لمادة الجسم وفسر الكون كله وأحداثه تفسيرا ماديا فلما أتت هذه الأفكار إلى الشرق – وهو المعتز بدينه الفخور بروحانيته – غضب منها وغضب ممن اعتنقها وجاء المصلحون يبينون مزايا الدين والحياة الروحية ويردون على الملحدين فتبين لكثير من العلماء أن المادة وحدها تعجز عن تفسير الكون تفسيرا صحيحا يركن إليه – بعد أن كانت حركة عنيفة بين المؤمنين والملحدين فعادوا إلى الروحانية والقول بالدين وظهرت موجة الإيمان بعد موجة الالحاد مع أن الشرق كان دائما وأبدا مهد الأديان يؤمن بها ويركن إليها ويرى أنها سنده في حياته وأمله بعد مماته ، وهو يرى أيضا أن الدين الصحيح لا يحارب العلم ولا يقف في سبيله فلكل مجاله ولكل مزاياه . ولقد كان لهذه الأسباب كلها أثرها في انتعاش الفكرة الإسلامية فارتفعت الأصوات من كل مكان تطالب بالرجوع إلى الإسلام وتفهم أحكامه وتطبيق نظامه حتى أعلنت بعض الحكومات الإسلامية الكبرى وبعض كبار ساسة العالم القانونيين في هيئة الأمم المتحدة

وأمثالها من المنظمات الدولية أن خير النظم لإصلاح المجتمع الإنساني وإقرار الأمن والطمأنينة في العالم هو دستور الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله قبل أربعة عشر قرنا .

ومن تتبع الأحكام الشرعية الإسلامية في مختلف أبوابها من عقائد وعبادات ومعاملات وعقوبات واستقراء الحكم التشريعية التي شرعت لأجلها تلك الأحكام ، يجزم بأن الغاية منها تحقيق مصالح الإنسانية وإقرار العدل والإنصاف بينهم وتأسيس السلام والنظام في العالم .

فأما تحقيق مصالح الإنسانية فإن مصلحة أي فرد أو مجتمع تتكون من عناصر ثلاثة :

١ – من أمور ضرورية لا تقوم حياة الفرد أو المجتمع إلا بها .

٢ – من حاجيات لا تتيسر الحياة وتخلو من العسر والحرج إلا بها .

٣ – من أمور كمالية لا تكمل الحياة وتتم إلا بها . وقد كفلت الشريعة الإسلامية كل واحد من العناصر الثلاثة بنوعين من الأحكام :

الأول : أحكام توجيه وتحققه – **الثاني :** أحكام تصونه وتحفظه . وبهذا كفلت مصالح الإنسانية كلها ، ومن الضروريات الدين والنسل والمال والعرض والعقل وكل ضروري للفرد والأمة شرعت له في الإسلام أحكام توجيده وتحققه وأحكام تحفظه وتكفل بقاءه . وأشار خالق البشر في كتابه الكريم آي عدة إلى أن الغاية مما شرعه مصلحة عباده ، كقوله في الحدود : ((ولكم في القصاص حياة)) . وفي تشريع القتال ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)) . وفي الصلاة ((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)) . وفي الزكاة : ((خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)) . وفي الحج : ((ليشهدوا منافع لهم)) . وكما كفل الضروريات بهذه الأحكام كفل الحاجيات والكماليات بتشريع أنواع من المعاملات والمبادلات وبالترخيص للبشر بأحكام فيها تخفيف عنهم إذا شقت عليهم العزيمة ، وبإباحة المحظورات عند الضرورات وبتشريع آداب المعاملات وأحكام الطهارات الباطنية والظاهرية وأشار الله تعالى في القرآن إلى مراده من وضع هذه القوانين والمواد والأحكام في دستوره الخالد من اليسر بالناس وإتمام النعمة عليهم وإقرار الأمن والنظام في المجتمع الإنساني فقال : ((ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم)) وقال : ((يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)) .

العمل لتحقيق التضامن الإسلامي

على أسس قويمة

لم يكن الناس في يوم من الأيام في غنى عن روابط تربطهم أفراد وجماعات بعضهم ببعض ، بل وما كان في وسعهم – لو أرادوا – أن لا تكون تلك الروابط وأن يتخلوا عنها لأنها لازمة لوجودهم في هذا العالم . وأنواع الروابط التي تربط الناس بعضهم مع البعض كثيرة منها : رابطة القرابة ورابطة الوطن ، ورابطة اللغة ، ورابطة الجنس ، ورابطة الصداقة ، ورابطة الدين ، ورابطة الثقافات .... وغير ذلك ..

إن طبيعة الحياة في هذا العالم تزاحم وتغالب ومدافعة في سبيل الحصول على حاجة النفوس ورغباتها ، والفوز في هذه الحصول إنما هو لأولى القوة والبطش . وفرد واحد أو بعض الأفراد في أكثر الحالات لا يقوى أن يصمد أمام ما يعترض سبيله فلا بد له من روابط يستعين بها على الظفر بما يطلب والمحافظة على ما اكتسب وكانت له تلك الروابط عمادا لحياته . وحافزا لبقائه وسكونه .

وهنا مشكلة خطيرة أخرى وهي : مع كون هذه الروابط من الضروريات للانتفاع ولشدة الحاجة إليها فإنها قد تختلط على طائفة من الناس ، فتنتهي بهم إلى الاختلافات والنزاع وتسلمهم إلى التعارض فبعضهم يؤثر رابطة والبعض الأخرى يختار رابطة أخرى ، فإذن يقتضي القانون الفطري أن يكون لهذه الروابط نظام وحدود ينتهي عندها كل خلاف ، ويرتفع لديها كل تعارض . وذلك إنما يكون بتغليب رابطة منها واخضاع سائر الروابط لمقتضاها ..

فجاء الإسلام معلنا أنه فطرة الله التي فطر الناس عليها . فغلب رابطة الدين على جميع الروابط (مع إقرار سائر الروابط بشرط أن تخضع لهذه الرابطة) فجعل من المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت جنسياتهم ، وتعددت لغاتهم ، وتباعدت أوطانهم ، وتباينت عاداتهم فأصبح المسلمون بتلك الرابطة أمة واحدة وطنهم دار الإسلام ، ودستورهم القرآن . وهدفهم إعلاء كلمة الله ، وطريقتهم العمل وترك التواكل والتكاسل ، يحكمون بدستور خالق البشر فقط ويهتدون بهديه ، وينزلون على حكمه في كل اختلاف ونزاع ..

تتكافأ دماؤهم وتتساوى حقوقهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، واخيرا وليس آخرا : وهم يد على من سواهم . إن الإسلام لم يهمل أمر الروابط الأخرى وما حط من شأنها . مثلا : أقر الإسلام " رابطة القرابة " فاعظم أمرها ، واتخذها أساسا لنظام الأسرة . رتب عليها كثيرا من الآيات . وقال :((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي)) .

((واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى)) ، ((وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا)) .

وفي كل ذلك دلالة قوية على أن لرابطة القرابة من عظيم الأثر وجليل الخطر في بناء الأسرة وتكوين الأمة ، وكذلك قرر الإسلام بل أحكم رابطة المصاهرة . ورابطة المال . ورابطة الوطن .. ولكن جعل هذه الروابط كلها أدنى من رابطة الدين التي شعارها حب الله والرسول والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى هدد من يفضل تلك الروابط على رابطة الدين . فأعلن دستور الإسلام – القرآن الكريم – ((قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين)) .

وأن قول رسول الإسلام : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " يجعل الدين حاكما في كل ما يطلب ويرغب وهو إعلان بأن رابطة الدين هي حاكمة على جميع الروابط الهادية إلى الطريق الذي يجب سلوكه . فتتلاشى كل رابطة أمام رابطة الدين عند التعارض فلم ينزل بالمسلمين هذا الضعف والوهن إلا حين انحلت تلك الرابطة فانقسمت الأمة الإسلامية بحسب أوطانها فرقا وشيعا ، وحل دفاعهم عن أوطانهم محل دفاعهم عن دينهم واستعاضوا عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الله في العالم بالمحافظة على بعض المظاهر الزائلة الزائفة والجاه الكاذب ... وحقيقة التشتيت والتفرق بين المسلمين أن الغرب انتهى أخيرا إلى جماعات متفرقة تعددت بتعدد أوطانها ، وتفرقت بتفرق بلدانها " على الرغم مما بينهم من وحدة في الدين ,, فاتخذوا شعار " الوطن " ستارا يستتر وراءه مظهر الملك وبقاء السلطان ، وأخيرا انتقلت فكرة الرابطة الوطنية والجنسية إلى الشرق ، فانهزمت لذلك رابطة الدين أمام هذه الرابطة الوافدة البراقة في مظهرها ، الوبيلة في مخبرها فزادت ما بين المسلمين من تفرقة . وساعدت على بث بذور الخلاف بينهم ، وكان من وراء ذلك الخلاف والضعف والانحلال والاستكانة والرضوخ لنفوذ الأجانب وسلطانهم .

وأين هذه الحال عندما اشتدت فيهم العصبيات الجنسية والوطنية واللونية وغيرها من حالهم يوم كانوا أمة واحدة ينعتها القرآن بقوله : ((إنما المؤمنون إخوة)) فيوثق بينهم رابطة الأخوة ويجعل انضواءهم تحت لواء وحدة الدين : كانضواء الأخرة تحت لواء الأبوية ويقف كل مسلم في أي ناحية من نواحي العالم على حالة أخيه في ناحية أخرى حتى لا يغيب على أي فرد من أفراد الجماعة الإسلامية أحوال الآخرين ، وكيف لا ، وهم يعتبرون أن كل فرد من أبناء الإسلام عضو من الجسم الواحد ، لا يعيش أو على الأقل لا يكمل عيشه ، إلا به ، حيث التساوي في الحقوق والتبادل في الود والتسابق في الحب والتماثل في القرب والتعاون عند العمل والتراحم عند النوازل والتواصل عند الحاجة ولا تحاسد ولا تباغض ولا تدابر ولا تقاطع ولا تخاذل ولا تواكل يود كل منهم لو يحمل عن أخير ألمه ، ويؤدي عنه مغرمه ، ويسارع إلى نصرته وينتدب لحمايتهة ولهذه الخصال التي شاعت فيهم انطبق عليهم قوله تعالى: ((كنتم خير أمة اخرجت للناس)) إلى آخر الآية . وأن رسول الإسلام قد بين أسس الوحدة التضامن وهي :

١ – المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضا .

٢ – لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه .

٣ – المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

٤ – لا تحاسدوا ولا تفاحشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .. ... الخ " .

٥ – لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال .. يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا خيرهما الذي يبدأ بالسلام .

٦ – إذ التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . فقال الصحابة (هذا القاتل فما بال المقتول) ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه .

٧ – سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

٨ – انصر أخاك ظالما أو مظلوما . قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوما ! فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذون فوق يديه .

٩ – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه.

١٠ – من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة .

هذه صورة الأمة الإسلامية في وحدتها وقوتها وتضامنها وتعارفها وتعاونها ويصفهم رسول الله وصفا رائعا ويمثلهم تمثيلا بديعا بقوله : " مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ".

وهنا ، كيف يستطيع التعاون والتعاطف بغير التعارف بين أفراد الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها وجنودها وشمالها . . !!

هذا برهان ساطع على وجوب تعارفهم ووحدتهم حتى يكون العالم الإسلامي جسما واحدا له نفس واحدة وقوة واحدة تتجه إلى غرض واحد وتنهج منهجا واحدا وتذود عن وطن واحد وعن قومية واحدة ، وعند ذلك يتم لها الظفر كما تم لهم من قبل : ((سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا)) .

الخـــاتمـة

عرفنا من هذا التطواف السريع الذي قمنا به حول الدعوة الإسلامية وأهدافها وأركانها ومناهج تبليغها ووسائله وأساليبه ، أن المقصد الأسمى من الرسالة الإسلامية هو إرساء أصول العقائد والعبادات والمعاملات والالتزامات الاجتماعية والواجبات والحقوق الإنسانية على أسس منهجية وقواعد سليمة . وأن هذا النهج يجعل حياة الفرد المسلم قائمة على المحبة الإلهية والأخوة الإنسانية وعمل الخير في الخير . والتفكير في الخير والتكلم بالخير .

ويجب أن يكون الداعي المسلم مثلا أعلى في السيرة الطيبة والأفعال الحميدة والصفات العالية والأخلاق الكريمة ، حتى يكون بمثابة كتاب مفتوح يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها ، أو لوحة مضيئة يرون فيها صورة الإسلام الصحيح واضحة المعالم ومشرقة الجوانب.

والله ولي التوفيق – وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .